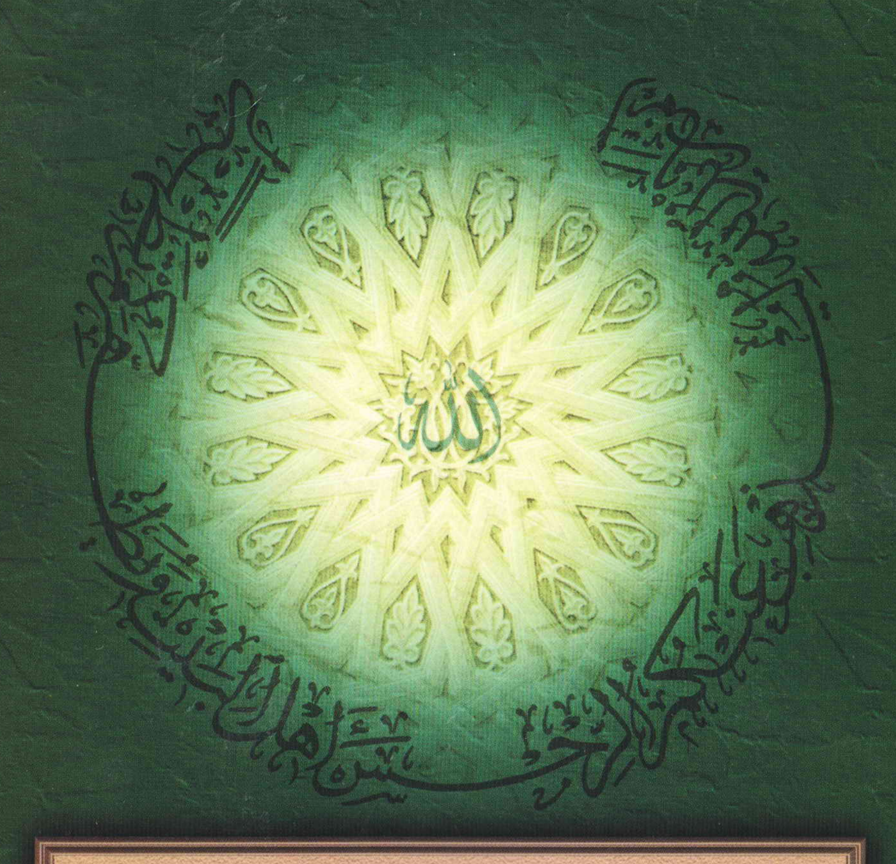


آية التطهير

رؤية مبتكرة

تأليف: آية الله العظمى الشيخ محمد الفاضل اللنكراني
آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي

تحقيق و نشر: مركز فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام



آية التطهير

رؤية مبتكرة

تأليف:

المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ محمّد الفاضل اللنكراني

آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي



▣ إسم الكتاب: .... آية التطهير، رؤية مبتكرة

▣ تأليف: سماحة آية الله العظمى الشيخ محمّد الفاضل اللنكراني ـ مدّ ظلّه ـ

آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي ـ رحمه الله ـ

▣ تنضيدالحروف، التحقيق والنشر: .... مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام

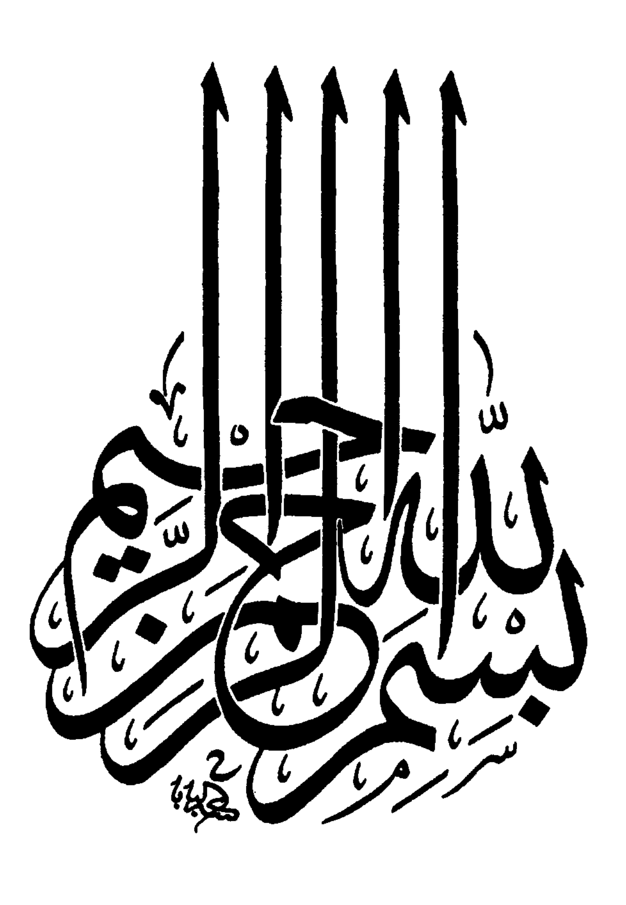
▣ الطبعة: .... الثالثة ـ ١٤٢٤هـ

▣ المطبعة: .... اعتماد ـ قم

▣ الكمّية: .... ٥٠٠٠ نسخة

▣ السعر: .... ٥٠٠ تومان

شابك: ٥-٥-٩٢٣٠٩-٩٦٤ ISBN: 964-92309-5-5


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم من الأوّلين والآخرين

فضلاً عن القيمة العلمية والمحتوى الراقي لهذا الكتاب فإنّه يتزيّن بفضيلة أخرى، هي أنّه بقلم سماحة آية الله العظمى الشيخ الفاضل اللنكراني حفظه الله وأدام ظلّه على رؤوس المسلمين...

فكون الكاتب أحد مراجع التقليد العظام، فهذا يعني أننا أمام نظرة تخصّصية، واستظهارات من القرآن والسنّة والتاريخ خضعت لممارسات علمية لا يعتريها شكّ ولا ينتابها ترديد، إنّها معالجة خبير متخصّص ثنيت له الوسادة في الفقه والأصول ومختلف القواعد، التي تمكّنه من استظهار أعمق من الأدلّة وانتزاع أصوب وأقرب إلى الواقع، واستيعاب أكبر للنصوص والمدارك، وبالتالي وقوف أدق على الأفكار والمفاهيم والمعارف الإسلامية.﴿... فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً..﴾[1]، وفي هذا قيمة أخرى تجعل القارئ يتناول هذه المادّة باطمئنان أكثر لنقائها وسلامتها سواء للتلقّي أو المحاججة، والأمر ـ في هذا الإطار ـ ممّا شح

(١) الفرقان: ٥٩.

وقلّ وجوده في عصرنا الحاضر الذي تشعّبت فيه الفروع الفقهيّة، وتوسّعت أبواب ما يبتلىٰ به الناس من مستحدثات المسائل، فلم تترك للعلماء متّسعاً في الوقت يتعرّضون فيه لمباحث من قبيل ما انبرى له الشيخ الفاضل حفظه الله وصاحبه الشيخ الإشراقي تغمّده الله بواسع رحمته.

وقد أخذا هذا المنهج ـ تعرُّض الفقهاء المراجع لمباحث خارج إطار الدراسات الحوزوية الطولية، أي الفقه والأصول ومتعلّقاتهما كالبحث والكتابة في التفسير (غير آيات الأحكام) والحديث والكلام والفلسفة والأخلاق، بل معالجة عموم المتطلّبات المستجدّة في المجتمع الإسلامي التي تمسّ عقائد المسلمين وحركتهم ـ أخذاه عن أُستاذهما الإمام الخميني قدّس الله نفسه الزكية (وممّا يجدر ذكره أنّ الشيخ شهاب الدين الإشراقي هو صهر الإمام) الذي لا تزال مؤلّفاته في تلك الأبواب تثري المكتبة الشيعية وتسدّ ثلمة كبيرة فيها، فقد فرّغ الإمام‌ﷺ نفسه في إحدى المرّات لفترة امتدّت أشهراً، معتزلاً البحث والتدريس الحوزوي، للردّ على بعض الكتب التي مسّت أهل البيت‌عليهم السلام ونالت من العقيدة الإسلامية الصحيحة[1].

ونحن في هذا العصر أشدّ ما نكون بحاجة إلى كتابات ينهض بها متخصِّصون من علماء الحوزة ممّن نشأ في أكناف علوم أهل البيت

---

(١) ألّف الإمام الخميني‌ﷺ كتابه «كشف الأسرار» ردّاً (في نهاية القوّة وغاية الإتقان) على كتاب «أسرار هزار ساله» الذي قذف مؤلّفه الشيعة بالخرافة والشرك والبدعة، ونال من عقيدتهم في الشعائر الحسينية والتوسّل بالأئمّة الأطهار وبناء مراقدهم وزيارتها، وطعن في كثير من علماء الدين وسَخِرَ منهم...

وترعرع على مائدة آثارهم وتراثهم، ينهل من النبع الصافي ويتزوّد من معين لا ينضب، لتقطع الطريق على الالتقاطيين الذين نُسبوا إلى الوعي والتنوير، وأخذوا يخوضون في علوم يفتقرون إلى الإحاطة بمبادئها وأوّلياتها فضلاً عن التسلّط على أصولها وناهيك عن الإبداع والاجتهاد فيها، فيشرّقون ويغرّبون، ويخلطون الغثَّ بالسمين وتُعرض سمومهم -عن قصد وغير قصد- في لفافات من الصيت والصخب الإعلامي، بطباعة فاخرة وأسماء رنّانة صنعتها الصحف والمجلّات لا مقاعد التحصيل وكراسي التدريس!... فينخدع بها البسطاء، ويأخذها المستضعفون من أيتام آل محمّد الذين حُجبوا عن لقاء إمامهم عليه السلام وحُرموا التزوّد منه والأخذ عنه، بينما الساحة تتطلّع لنتاج خالص هو الأقرب فالأقرب لما يريده ذاك المغيَّب صلوات الله عليه من فكر وعقيدة وموقف، وتتحرّق شوقاً لبصيص نور يشير إلى تلك الناحية المقدّسة، ولعمري ما أراه سينبعث إلّا من نوّابه وأمنائه على رعيته **«أولئك الذين نفروا حتّى بلغوا حقيقة التفقّه وأصبحوا منذرين صادقين لقومهم وشعبهم»**[1]، بعيداً عن كدر المادية الجوفاء والتغريب الأخرق، والتلفيق الذي لا يُبقي للإسلام فيما يطرحه من الفكرة والمفهوم إلّا الاسم! فنسأل الله أن يكون هذا العمل طالع خير ويُمن، ويكون بمثابة قطر يتلوه غيث منهمر...

وقد جاء أسلوب الكتاب مُبسَّطاً، متجنّباً المصطلحات والعبارات المعقّدة، مستأنساً بآراء علماء آخرين، مُقتصراً البحث على موضوعه -

---

(١) من بيان الإمام الخميني قدس سره للحوزات العلمية، المعروف بـ«بيان رجب ١٤٠٩هـ».

آية التطهير ـ دون إطالة وإسهاب مُمل أو تشعّب يُشتّت التركيز... ليكون سهل التناول على مختلف المستويات، ومن الواضح أنّ الكاتب تحاشا استعراض مقدرته العلمية، وعَزَفَ عن التفنّن في استعمال إمكانياته ومَلَكاته في سطحها العالي حيث وضع نصب عينيه مستوى المُخاطَب، واكتفى من المعالجة العلمية بالقدر الأدنى الذي يخدم إثبات الفكرة وتحقيق الهدف من البحث ليس إلّا، موفِّراً للقارئ جهداً كان سيهدره فيما لا يعنيه، وللفكرة نجاة من الضياع في مطاوٍ قد يتيه فيها.

وبعد، فإنّي أنصح القارئ الكريم بالتأنّي في مطالعة الكتاب وعدم استباق فصوله (حتّى لا يقع فيما وقعت فيه من العجلة في جولتي الأُولى معه قبل أن أعزم على ترجمته، إذ كانت التساؤلات تترى في ذهني، وأسجلها مؤاخذات على الكتاب عندما لا أجد المعالجة المطلوبة لها، ثمّ لا ألبث قليلاً حتّى أُلاقي في الفقرات أو الصفحات التالية بغيتي وأعثر على ضالّتي!)، إذ سيجد لكلّ تساؤل مكانه من الإجابة والردّ، وسيرى أنّ البحث قد أحاط بكلّ الحيثيات والزوايا المتعلّقة بالموضوع... كما سيلمس العارفون نفحة معنوية ومسحة روحية خاصة صبغت الكتاب، استمدّها المؤلِّف ـ كما حدّثني بذلك شخصياً ـ من توسّله بمولاتنا فاطمة المعصومة عليها السلام[1] من أجل أن يرى هذا الكتاب النور، لذا فإنّ الكتاب ينفرد بموقع خاص في نفس الكاتب يميّزه عن بقيّة مصنّفاته ومؤلّفاته وإن فاقته محتوىً وجهداً علمياً.

---

(١) بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، التي تتشرّف الحوزة العلمية في قم المقدّسة بمجاورة مرقدها الشريف.

أمّا موضوع الكتاب، أي البحث في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١] فإلى جانب ما تناوله من دلالة هذه الآية وما تنطوي عليه من معانٍ وتحويه من أسرار تشكّل في مجموعها رسالة تامّة للباحثين عن الحقّ، والساعين لمعرفة طريق رضا الله ومنهج الوصول إلى سنّة رسوله، رسالة في الولاية التي ما نودي بشيء كما نُودي بها، فهي «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأنبياء ورضا الرحمن»[٢]... فإنّه يعني شيئاً آخر لعلّه خفي على كثيرين، هو التعارض الموهوم الذي افترضوه بين المناداة بالوحدة الإسلامية والدعوة لها، والتمسّك بولاء أهل البيت والرسوخ التامّ في العقيدة الإمامية الحقّة... فتعرّض الكاتب ـ وهو أحد أبرز تلاميذ الإمام الخميني، رائد الوحدة الإسلامية وأكبر المنادين بها في عصرنا الحاضر ـ لهذا الموضوع والدخول فيه على هذا النحو، يعني فيما يعني عدم التعارض بين المقولتين، وأنّ الوحدة التي أرادها الإمام الراحل، والمنهج الصحيح فيها هو الوحدة السياسية، والتقاء جميع الفرق والمذاهب الإسلامية على جهاد أعداء الدين الإسلامي المبين من الشرق والغرب والأنظمة الظالمة العميلة لهما، وهكذا عدم إثارة الاختلاف وتكلّف النزاع المنجرّ إلى ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣]... لا التفريط في المعتقدات الحقّة المنتهي إلى تمييع الأفكار والعقائد، ولبس الحق

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) تفسير العياشي ١: ٢٠٥ ح٢٠٢، بحار الأنوار ٢٣: ٢٩٤ ح٣٣.

(٣) الأنفال: ٤٦.

بالباطل من خلال تدليس قد يطمس معالم الهدى ويساهم ـ والعياذ بالله ـ في إضلال الأمّة، ولعلّ فيها طالب حقّ يسعى لما يسكّن روعه، ويلتقي بالفطرة التي زيّنها الله في قلبه من حبّ آل محمّد وولايتهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1]، أو مؤمناً موالياً بحاجة لما يربط على قلبه ويثبت عقيدته ويرسخ ولاءه... الأمر الذي يدخل في صميم الدور الرسالي لعلماء الدين. من هنا نجد الإمام الخميني قدّس الله سرّه ينهض بهذا الدور ويباشر هذه المسؤولية على امتداد مسيرته، حتّى ختم حياته وزيّن مطلع وصيّته للأُمّة الإسلامية بحديث الثقلين إذ يقول: **«إنّ حديث الثقلين متواتر بين جميع المسلمين وقد نقل في كتب السنّة ـ من الصحاح الستّة إلى الكتب الأخرى ـ بألفاظ مختلفة وموارد متكرّرة، متواتراً عن رسول الله ﷺ. وهذا الحديث حجّة قاطعة على جميع البشر خصوصاً مسلمي المذاهب المختلفة، ويجب على كلّ المسلمين الذين تمّت الحجّة عليهم أن يقدموا الإجابة عن ذلك، وإذا كان ثمّة عذر للجاهلين غير المطّلعين فلا عذر لعلماء المذاهب»**.

ويقول رضوان الله عليه في مقطع آخر من الوصية: **«نحن فخورون بأنّ مذهبنا جعفري وأنّ فقهنا، هذا البحر الزاخر، هو أحد آثاره، ونحن فخورون بكلّ الأئمّة المعصومين عليهم صلوات الله، ونحن ملتزمون باتّباعهم»**.

ولمّا كان الكتاب قد أُلّف قبل فترة بعيدة، فقد طلبت من سماحة

---

(١) الحجرات: ٧.

الشيخ مدّ ظلّه ملاحظة صياغة بعض العبارات وإدخال شيء من التعديلات، كما اقترحت عليه تغيير اسم الكتاب، فقد نُشر في طبعته السابقة باسم «أهل البيت أو الشخصيات اللامعة في آية التطهير» فتفضّل واستجاب مشكوراً...

وإلى جانب الترجمة، قمت بتخريج بعض الروايات والنصوص المنقولة وإرجاعها إلى مصادرها، وتعديل مصادر أخرى ـ مذكورة في الأصل ـ إلى طبعاتها الجديدة المتداولة، ولما كانت أغلب التخريجات مُجملة مكتفية باسم الكتاب أو الجزء دون ذكر رقم الصفحة فقد قمت بتفصيلها، بالإضافة إلى توضيح بعض ما احتملت غموضه على القارئ، وحيث إنّي قمت بإدراج تعليقات المؤلّف في المتن نفسه ونقلتها من الحاشية وضمّنتها الأصل؛ لذا فإن كلّ ما في الهامش يرجع إلى الترجمة لا التأليف، واكتفيت بذكر الأمر هنا على التوقيع في ذيل كلّ تعليق...

نسأل الله لسماحة الشيخ الصحّة والعافية ودوام التوفيق؛ ليرفد الأمّة بالمزيد من النتاجات العقائدية والفكرية إلى جانب ما يضطلع به من أعباء ومسؤوليات الإفتاء والمرجعية، إنّه سميع مجيب.

كتبها / عبّاس نخعي

■ ▣ ■



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب (٣٣)

تُعدّ هذه الآية الشريفة ـ وفقاً لروايات العامّة والخاصّة ـ من أشهر ما نزل في واقعة معيّنة تخصّ ثلّة خاصّة من أقرباء النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا ريب في دلالة هذه الآية على أفضلية أهل البيت عليهم السلام وطهارتهم ومنزلتهم.

إنّ خلاصة مدلول هذه الآية درر مرصعة بالفضيلة والطهارة والكفاءة، واستحقاق مرتبة الخلافة العظمىٰ، إنّ آية التطهير تخصّ بالذكر أُناساً يَسمون فوق أُفق الإنسانية حتّى الكاملة منها، ويسبحون في فضاء لا يرقى إليه أحد، لا ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا صدِّيق ولا شهيد...

وإن قلنا: إنّ هذه الصفوة من عباد الله تمسّكوا بهذه الآية، وأثبتوا على أساسها في عشرات الموارد تفوّقهم وأفضليتهم على غيرهم، لما كان قولنا جزافاً...

لقد سمّرت هذه الآية الشريفة أعين ذوي البصائر صوب قمم العصمة والطهارة، وكبَحَت المتعصّبين بلجام عصبيتهم، وأعيتهم عن التنكّر لأفضلية أهل البيت عليهم السلام وأحقّيتهم وكمالهم، ومن هناك حيث يطلع طلّاب الحقّ الذين تخلّصوا من جمود التعصّب، تتجلّى أحقّيتهم صلوات الله عليهم.

والوقوف على دلالة هذه الآية الكريمة والإحاطة بمفادها العميق يتطلّب المزيد من الدراسة والتحرّي والتحقيق، وللوهلة الأولى ـ إذا ما صرفنا النظر عن الروايات ـ نرى أنّ البحث ينبغي أن ينصبّ على نكات خمس رئيسية جديرة بالاهتمام:

النكتة الأولى: كون الآية الكريمة قد ذُكرت خلال آيات خاطبت زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، وعند التدقيق يتّضح أن لا علاقة لها بهاتيك النسوة.

النكتة الثانية: المفارقة التي تسجّل حول الآية بلحاظ شأن نزولها من جهة، وقد نزلت بصورة مستقلّة في مورد خاصّ، وكان محلّ نزولها بيتاً من بيوت نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، ومن جهة أُخرى ترتيبها في طريق التدوين، الذي تخلّل آيات تتحدّث عن نساء النبيّ صلى الله عليه وآله بحيث جاءت مقحمة في سياق: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

النكتة الثالثة: البحث في المقصود من «الإرادة» في قوله تعالى:

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ . . .﴾.

النكتة الرابعة: ما هو «الرجس» في النظرة القرآنية؟ ليكون مبيّناً لنفي الرجس بصورة مطلقة في الآية الشريفة.

النكتة الخامسة: البحث في عبارة «أهل البيت» هل هي اصطلاح خاصّ أم أنّ لها مفهوماً عامّاً يشمل جميع أقرباء رسول الله ﷺ، أم أنّها من العناوين المشيرة[1] التي لا يلحظ فيها المفهوم؟ وبعبارة أُخرى: هل عبارة «أهل البيت» ملحوظة بالمعنى الوصفي في الآية الشريفة أم أنّها مشيرة إلى جماعة معيّنة؟

□□□

---

(١) العنوان المشير: عنوان لا موضوعية له، يشير إلى موضوع ما. مثاله إذا قيل: احترم الشخص الذي يرتدي العباءة في المجلس، فإنّ واجب احترامه يبقى قائماً وإن نزع العباءة... وهنا يكون لبس العباءة عنواناً مشيراً. ويكاد هذا الأمر أن يكون أبرز ما تناوله هذا الكتاب بالبحث، وصلب الابتكار الذي لجأ إليه المؤلّفان في معالجة الآية وتفسيرها... وستجد تفصيله في الصفحة ١٢٥ ـ ١٣١ من هذا الكتاب.



النكتة الأُولى:

علاقة الآية بزوجات النبيّ ﷺ

لا ريب في أنّ هذه الآيات نزلت في المدينة؛ لأنّ جميع آيات سورة الأحزاب مدنية، خصوصاً الآيات التي كانت نساء النبيّ ﷺ هنّ المخاطب فيها؛ لأنّهنّ إنّما دخلن في عصمة النبيّ ﷺ وأصبحن أزواجه في المدينة.

إذن ثمّة ظنّ قويّ هنا بأنّ الآية نزلت في أواخر حياة النبيّ ﷺ حين كان ﷺ ذا أزواج عديدة، الأمر الذي اتّفق للنبيّ ﷺ في أواخر أيّامه، وعلى القاعدة فإنّ جميعهنّ أو أكثرهنّ بقين في عصمته، ثمّ حظيت وتشرّفت كلّ واحدة منهنّ بعد وفاته بلقب «أمّ المؤمنين».

من الواضح أنّ هذه الآيات التي تخاطب الزوجات لقضية هامّة وتوجّه إليهنّ نصائح قيّمة، وتذكّرهنّ بأُمور مفيدة، تريد رسم منهج تربوي خاصّ لهذه النسوة يحصّنهنّ من الإضرار بالإسلام والمسلمين، لما يمكن أن يؤدّينه من دور في مستقبل الإسلام بعد رحيل النبيّ ﷺ، ولما يحتمل أن يؤثّر فيهنّ من عناصر التخريب في ظلّ الاعتداد والتمتّع بلقب «أمّ المؤمنين»، فيُضللن الأُمّة التي لم تواكب وقائع عهد النبيّ ﷺ عن قرب، وظلّت تعاني الجهل بحقائق تلك الفترة. إذ إنّ التوجّه إلى هذه الآيات والعمل بالنصائح والإرشادات التي تحويها سيحدّد

تكليفهنّ الصحيح، ويحُول دون ارتكابهنّ ما يعرقل المسيرة ويعيق دور الزعماء الواقعيين للإسلام، فلا يكن سبباً لانفصام عرى الدين وأُسسه.

تبدأ الآية الأُولى بمخاطبة نساء النبيّ صلى الله عليه وآله بتذكرهنّ أنّ حبّ الدنيا، والافتتان بالحياة المادّية وزينتها لا يتناسب ومقام الزوجية لرسول الله صلى الله عليه وآله، وتدعوهنّ لعدم التشبّث بالافتخار بهذا المقام، واتخاذ موقف عملي وواقعي بالانفصال عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالحسنى. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾[1].

وتذكّرهنّ الآية الثانية إن كنّ على استعداد لمجاراة رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته المنقطعة إلى الله والتي أوقفها للآخرة، وأردن مواصلة الحياة الزوجية معه صلى الله عليه وآله على هذا الأساس، فإنّ هذا مدعاة فخر واعتزاز لهنّ وباعث لبلوغ أعظم الأجر. ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾[2].

ثمّ تستعرض الآية الثالثة حساسية وخطورة أفعالهنّ، والموقع المتميّز الذي اختصّت به أعمالهنّ، فليس شأنهنّ وحسابهنّ مثل غيرهنّ من النساء إن أتين بالمعصية أو الفاحشة المبيّنة، بل إنّ موقعهنّ من رسول الله صلى الله عليه وآله يجعل الحساسية مضاعفة، وبالتالي فالعقاب مضاعف أيضاً. ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا

---

(١) الأحزاب: ٢٨.

(٢) الأحزاب: ٢٩.

الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾[١].

وتبيّن الآية الرابعة الجانب المقابل لما جاءت به الآية الثالثة، فالتزام التقوى وخلوص العبودية لله سبحانه والامتثال المطلق لرسول الله ﷺ وعمل الصالحات يوجب الأجر والثواب المضاعف أيضاً، كما أوجب اجتراح الفواحش والانصراف إلى الدنيا وزينتها العقاب المضاعف. ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾[٢].

أمّا الآية الخامسة فإنّها تصرّح بالتحذير والتذكرة، فلا ينبغي لهنّ أن يقسن أنفسهنّ بغيرهنّ من النساء في أمر الحياة المعيشية، فإن اتّقين الله وتجنّبن معصيته ولم يلجأن إلى الحيل والأساليب الملتوية فإنّ الله هو المثيب والمجازي. ولا ينبغي لهنّ بحال أن يقارن أنفسهنّ بغيرهنّ، ويجب أن يسلكن الغاية في الاحتياط حتّى في أُسلوب وطريقة الكلام التي يجب أن تتنزّه عن الخضوع في القول، وما قد يبعث على طمع مَنْ في قلبه مرض، فالحرمة مضاعفة والحظر والتقييد ينبغي أن يكون مضاعفاً ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[٣].

وفي الخاتمة يحدِّد مطلع الآية السادسة دورهنّ الاجتماعي وواجبهنّ تجاه المجتمع الإسلامي، فليس من دورهنّ الظهور في المحافل

---

(١) الأحزاب: ٣٠.

(٢) الأحزاب: ٣١.

(٣) الأحزاب: ٣٢.

العامّة، ولا التدخّل في القضايا السياسية للمسلمين، بل عليهنّ التزام بيوتهنّ وإطاعة الله ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾(١).

إذن فالآيات الموجّهة إلى نساء النبيّ صلى الله عليه وآله لا تثبت لهنّ أيّة فضيلة بل تحرّضهنّ على كسب الفضائل، وتقوم بتعريفهنّ بما يجب على امرأة مسلمة تريد أن تكون زوجة للنبيّ صلى الله عليه وآله وتتمتّع إلى يوم القيامة بهذا الشرف، وقد جاءت هذه الإرشادات لتقطع الطريق على تماديهنّ وتدخّلهنّ في القضايا الإسلامية العامّة والحسّاسة ممّا أوكله الله ورسوله صلى الله عليه وآله إلى رجال الإسلام في مستقبله، فلا تذهب بهنّ الظنون وتسوِّل لهنّ أنفسهنّ أنّهنّ ورثن الملك وحقّ سياسة الدولة الإسلامية لكونهنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله .

وهذه الآيات لا تعني بأيّ حال تعلّق الإرادة التكوينية(٢) للباري عزّوجلّ بطهارة نساء النبيّ صلى الله عليه وآله أو عصمتهنّ أو نزاهتهنّ واستقامتهنّ، حيث دفعت كلمة «تُردن» في الآية أي احتمال للإرادة الإلهية التكوينية بهذا الصدد، وألقت عبء اكتساب الكمالات التي وعدت بها الآيات على عواتقهنّ وسعيهنّ، إذ عرضت عليهنّ: إن كنّ يردن عَرَض الدنيا المهلك فعليهنّ الانفصال عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنّهنّ لا يلقن بشرف الاقتران به، وإن كنّ يردن الله ورسوله فإنّ لهنّ أجراً عظيماً، فالذات

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) سيأتي البحث مفصّلاً في معنى الإرادة التكوينية في ص٩١.

الإلهـية المقدّسة إذن ليست لها إرادة استثنائية بالنسبة إلى نساء النبيّ ﷺ، والأمر راجع إليهنّ وإرادتهنّ الخاصّة في الوضع والحال الذي يكن عليه من السعادة أو الشقاء، بل أرشدهنّ إلى اتّباع سبيل الخير والصلاح ليحظين بالأجر المضاعف، وحذّرهنّ إن سلكن طريق الإعوجاج فإنّ لهنّ عقاباً مضاعفاً. فالأمر إذن إليهنّ في تحديد المنهج الذي يبنين حياتهنّ على أساسه.

وعلى ما سبق نستخلص من هذه الآيات الشريفة نتيجتين مهمّتين:

١ ـ فصل وعزل نساء النبيّ ﷺ عن أيّ دور في القضايا الاجتماعية الحسّاسة وشؤون المسلمين العامّة، وأمرهنّ بانتهاج خطّ سلمي يمضي بالتي هي أحسن، واتّخاذهنّ دور ربّة البيت المنصرفة إلى شؤون بيتها وتهذيب نفسها بالفضائل بعيداً عن الأهواء الدنيوية الشيطانية.

٢ ـ انتفاء الدلالة على تعلّق الإرادة الإلهية بنزاهة نساء النبيّ ﷺ وكونهنّ حالة متميّزة ومتفوّقة، ففي هذا المضمار لهنّ الخيار، إلّا أنهنّ إن أَرَدْنَ الاحتفاظ بشرف اللقب فعليهنّ اتّخاذ طريق الصلاح.

الآية الخاصّة، آية التطهير:

في معرض هذه الآيات نلتقي بجملة معترضة تحكي تعلّق المشيئة والإرادة الربّانيّة بأمر عظيم، فيتغيّر أسلوب الحديث وشكل الخطاب الإلهي في هذه الجملة، فالحديث يدور حول مشيئة الباري تعالى وإرادته التكوينية، ومفاد هذه الجملة هو: خَتَم القضاء وحَكَم بوجود بيت وأسرة تسمو فوق قمم الفضيلة والطهارة وأعلى مراقي الإنسانية

والقدرة والكفاءة...

في جملة قصيرة - تغيّر فيها ضمير جمع المؤنث إلى جمع المذكر «كُم» - يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

فقد قضت إرادة الله أن يكون أهل البيت عليهم السلام - الصفوة من بيت النبوّة - هم الوحيدين المنزّهين عن كلّ نقص وعيب وسوء ورجس، وأن تشع في نفوسهم وأرواحهم أنوار الطهارة والصفاء التي لا تزول، نزاهة وطهارة تمكن الدين القيم من العطاء النقي الخالص إلى الأبد.

إذن نحن هنا أمام الكلام في الإرادة التكوينية والقضاء المحتوم، إرادة انبعاث بيت وأسرة، في أعلى مستويات الإنسانية البعيدة عن الزلل والخطأ والانحراف والتحريف والأمراض النفسية والخصال القبيحة، وكلّ عيب أو نقص... المتحلّية بجميع الكمالات من الصفاء والطهارة والتقىٰ والزهد، وكلّ فضيلة وكمال نفسي وروحي...

ومن البديهي أنّ قضاء الله وإرادته الأزلية لم تتعلّق بهذا الأمر عبثاً ولغواً، بل هي مقدّمة لإعداد هذه الوجودات القدسية لدور إسلامي خطير ما هو إلّا قيادة المسلمين وهدايتهم[1].

---

(١) لا يخفى بأنّ المقصود هو النهوض بدور رسالي في هداية الأمّة، وهو أعمّ من الإمامة والقيادة السياسية، وهذا الدور يتطلّب العصمة والطهارة، فالزهراء عليها السلام لم تكن إماماً ولكن الآية شملتها للدور الذي أوكل بها على صعيد الدفاع عن الإمام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله والنهوض بمخاصمة القوم ومحاججتهم، أو بلحاظ كونها الوعاء الطبيعي لاستمرارية خط الهدى عبر الأئمة عليهم السلام من ولدها... وسيشير المؤلّف - حفظه الله - إلى شيء من خصوصيات الزهراء عليها السلام وموقعها في الآية الشريفة في آخر الكتاب.

وعلى هذا، فإنّ هذا الخطاب لا يمكن أن يشمل نساء النبيّ صلى الله عليه وآله بدليلين ـ فضلاً عن الأدلّة الأخرى التي سيأتي بيانها لاحقاً ـ هما:

١ ـ لا دلالة في الآيات المتعلّقة بنساء النبيّ صلى الله عليه وآله على إرادة الله سبحانه تنزيههنّ، بل إنّها صرّحت من خلال كلمة «تُردن» بأنّ أمر بلوغ مرتبة الأجر المضاعف أو نيل العقوبة المضاعفة منوط بهنّ وبإرادتهنّ الخاصّة، فإنّ إرادتهنّ لها المدخلية التامّة في مصيرهنّ، ومع ثبوت هذا الأمر لا يعود لفرض دور في تدخّل الإرادة الربّانية بشكل تكويني خصوصاً لصالح نزاهتهنّ وطهارتهنّ أيّ معنى.

وبعبارة أوضح: كيف يمكن أن تتعلّق الإرادة الإلهية المحتومة بنزاهة نساء النبي صلى الله عليه وآله وطهارتهنّ من كلّ الخبائث والأرجاس، مع أنّ الآيات صرّحت باحتمال انصرافهنّ إلى الدنيا وسقوطهنّ في حبائل زينتها ممّا لا يجتمع وشأنية الاقتران برسول الله صلى الله عليه وآله؟ بحيث طالبتهنّ تلك الآيات الشريفة بالتخلّي عن رداء الفخر والاعتزاز، الذي نلنه بمقام الزوجية إذا ما اخترن طريق الدنيا؛ ليصبح شأنهنّ كسائر نساء المسلمين دون امتياز وفخر يضفيه لقب «أُمّ المؤمنين»، هل يتوافق هذان الأمران ويقبلان الاجتماع والالتقاء في موضوع واحد؟ كلّا ... ومن هنا يُعلم أنّ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله خارج دائرة إرادة الباري التكوينية، التي قضت بطهارة أهل البيت عليهم السلام، وأنّ مصيرهنّ يتعلّق بإرادتهنّ الخاصّة وسلوكهنّ الشخصي لا غير.

٢ ـ إنّ رسالة هذه الآيات الشريفة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النبي

قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ حتّى قوله: ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[١] هي بيان واجب وتكليف نساء النبيّ ﷺ وانحصاره بدور ربة البيت المتديّنة العفيفة، لا التدخّل في أمور المجتمع والخوض في القضايا السياسية، أمّا آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ فهي حاكية عن إرادة الباري عزّوجلّ في خلق وإيجاد بيت وأسرة طاهرة مطهّرة ليُوكّل إليها دور وتُناط بها وظيفة اجتماعية سياسية غاية في الأهمّية، كيف يمكن إذن أن يكون هذا القسم من الآية شاملاً لزوجات النبيّ ﷺ ؟ مع أنّنا نلاحظ تغيّراً واضحاً في أسلوب الخطاب الذي تحوّل فجأةً إلى ضمير «عنكم» بعد تتالي عشرين ضميراً لجمع المؤنّث!

كانت هذه إشارة موجزة إلى أن آية التطهير لا تدلّ على طهارة زوجات النبيّ ﷺ ونزاهتهن.

وهذه النتيجة تنسجم مع رؤية العارفين بالقرآن الكريم وأسلوبه ومنهجه، فقد خلصوا إلى أنّ دور زوجات النبيّ ﷺ لا يتجاوز مدلول هذه الآيات التي بحثناها من التزام بيوتهنّ والقيام بشؤونها والتحلّي بلباس التقوى.

وسنتناول هنا بعض النماذج من آراء هذه الطبقة الممتازة، ومن الأنسب أن تكون الرؤية الأولى لواحدة من هذه النسوة أنفسهنّ اللاتي توجّه إليهنّ الخطاب في تلك الآيات، ونرى أن نقدّم شيئاً في ترجمة شخصية هذه المرأة العظيمة.

---

(١) الأحزاب: ٢٨ ـ ٣٣.

رأي أُمّ سلمة :

لابدّ لنا قبل عرض رأي هذه المرأة الصالحة في هذه القضية الحسّاسة من نقل بعض صفاتها وخصائصها دفعاً لأيّ وهم قد يخدش بموضوعيتها في تبنّي رأيها من الآيات ومن هذه القضية، ولا يحمل الرغبة التي أبدتها في قصّة حديث الكساء محمل الهوى ورغبات النساء.

بعد أُمّ المؤمنين خديجة الكبرى عليها السلام تأتي أمّ سلمة رضوان الله عليها على رأس قائمة النساء اللآتي كنّ يلقن زوجات للنبي صلى الله عليه وآله، لقد كانت أكثرهنّ أمانة حتّى إنّها استُودعت أمانات وودائع الإمامة، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**أفضلهنّ ـ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله ـ خديجة بنت خويلد، ثمّ أُمّ سلمة بنت الحارث**»[1]، لقد كانت الوحيدة من بين نساء النبيّ صلى الله عليه وآله التي ما توانت عن نصرة أمير المؤمنين عليه السلام والدفاع عنه، ولم تدّخر وسعاً في كشف الحقائق وإعلانها.

وكان أهل البيت عليهم السلام يرونها أهلاً لاطّلاعها وائتمانها على أسرارهم، وهي نفسها التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث زاخرة بفضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن تعصّب هذا وذاك ليمنعها عن الصدع بالحقّ.

ولعلّ نزول هذه الآية «آية التطهير» في بيتها ـ باتّفاق الفريقين ـ

---

(١) الخصال ٢: ٤١٩ ح١٣، بحار الأنوار: ٢٢ / ١٩٤ ح٧.

خير شاهد على فضلها ومنزلتها، وكما سيأتي في البحث حول المراد من البيت في «أهل البيت» هو بيت أمّ سلمة رضوان الله تعالى عليها، وهو أحد بيوت نساء النبيّ ﷺ، وقد ذكر في الآيات محلّ البحث في موردين بصيغة الجمع، وكيف كان فقد عدّ هذا البيت المبارك منبعاً وأساساً لإطلاق هذا العنوان «أهل البيت»، الذي تحوّل بعد ذلك إلى مصطلح خاصّ[1]، بحيث أُضيفت الثلّة الخاصّة من أسرة النبيّ ﷺ المشمولة بآية التطهير إلى ذلك البيت، وهذا بحدّ ذاته أفضل شاهد على مكانة ومنزلة أمّ سلمة.

ويكفي لإثبات تمتّعها بروح مطمئنّة ونفس مذعنة لرسول الله ﷺ أنّها كانت تصرّح بقول النبيّ ﷺ لها أنّ هذه الآية لا تشملها، وأنّها ليست من أهل البيت الذين أرادتهم الآية الشريفة.

ويسعنا القول: إنّها كانت من الوثاقة والعدالة والمنزلة بحيث كانت أحاديثها مستنداً لكثير من أعلام الشيعة ورجالاتها فيما اتخذوه من مواقف تجاه أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى سبيل المثال نذكر زيد بن صوحان، الذي استشهد في حرب الجمل، وقد حضر أمير المؤمنين مصرعه فلقّاه مضرّجاً بدمه وهو في حال النزع يجود بنفسه، فقال له: رحمك الله يا زيد قد كنت خفيف المؤونة عظيم المعونة، فرفع زيد رأسه وأخذ يقول بصوت خافت: **«وأنت فجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، فوالله ما علمتك إلّا بالله عليماً وفي أُمّ الكتاب عليّاً حكيماً، وأنّ الله في**

---

(١) بحيث انصرف المدلول المكاني للكلمة «البيت» إلى معنى علمي ومقصود معنوي ونوري خاص... وسيأتي البحث في ذلك لاحقاً.

صدرك لعظيم، والله ما قاتلت معك على جهالة، ولكنّي سمعت أمّ سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» فكرهت والله أن أخذلك فيخذلني الله»[١].

وتُعدّ الرسالة التي كتبتها إلى عائشة في واقعة الجمل أفضل شاهد على علمها وفضلها ومعرفتها بالقرآن، إلى جانب بلاغتها وفصاحتها، وأنّها امرأة عالمة عارفة بالقرآن، مطيعة لرسول الله صلى الله عليه وآله، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، معلنة للحق وساعية له، لا مغرضة ولا طامعة، تكنّ لأمير المؤمنين عليه السلام خالص الولاء والوفاء، متحرّقة لنصرة الإسلام وإنقاذ الأمّة من الفتنة، كتبت لعائشة تقول:

«إنّك جُنّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أُمّته، وإنّ الحجاب دونك لمضروب على حرمته، وقد جَمَعَ القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه، وسكّن عُقَيراك فلا تُصحريها، لو أذكرتك قولةً من رسول الله صلى الله عليه وآله تعرفينها لنُهشت بها نَهْشَ الرقشاء المطرقة، ما كنت قائلةً لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصّة قَلُوص قعودك من منهل إلى منهل قد تركت عُهَيْداه وهتكت ستره، إنّ عمود الدين لا يقوم بالنساء، وصَدْعه لا يُرأبُ بهنّ، حُمادَيات النساء خفض الأصوات وخَفرُ الأعراض، اجعلي قاعدة البيت قبرك حتّى تلقينه وأنت على ذلك»[٢].

---

(١) اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي: ٦٦ ـ ٦٧ الرقم ١١٩. قاموس الرجال ٤: ٥٥٧ ـ ٥٥٨، بحار الأنوار ٣٢: ١٨٧ ح١٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٦: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

رأي زيد بن صوحان :

عندما وصلت عائشة مع صحبها إلى البصرة لإثارة الفتنة وإشعال الحرب، كتبت إلى زيد بن صوحان تؤلّبه على أمير المؤمنين عليه السلام، (وقد أثبت ابن الأثير هذه الرسالة وجوابها في الكامل في التاريخ) وقد أدرجها صاحب قاموس الرجال أيضاً في ترجمة زيد[1]، وهكذا سائر كتب التراجم مع اختلاف يسير، ونحن هنا ننقل نص «الكامل»:

«من عائشة أُمّ المؤمنين حبيبة رسول الله(!) إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان: أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا، فإن لم تفعل فخذّل الناس عن عليّ».

أمّا زيد، وهو أخو صعصعة ومن كبار التابعين، وهو كأويس القرني، الذي لم يحظ بصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بشّره بالجنّة[2]، وقد أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام في جهاده الناكثين في حرب الجمل، فقد كتب في جوابها:

«أمّا بعد، فأنا ابنك الخالص، لئن اعتزلت ورجعت إلى بيتك وإلّا فأنا أوّل من نابذك»[3].

وهذا الجواب يكشف بوضوح إحاطة عموم المسلمين بوظيفة

---

(١) قاموس الرجال ٤: ٥٥٨.

(٢) قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: يسبقه عضو منه إلى الجنّة، فقطعت يده يوم مؤتة، وقتل مع عليّ عليه السلام يوم الجمل (ج ١ من الأحاديث الغيبية / مؤسسة المعارف الإسلامية، وقد ذَكر له عشرين مصدراً).

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٢١٦.

وبواجب كلّ فئة منهم، ففي رؤية زيد كان يمكن لعائشة أن تكون أُمّاً للمؤمنين وتتمتّع بميّزات هذا اللقب، إذا ما قرّت في بيتها وانشغلت بدور ربة البيت، وإن لم تفعل فليست للمؤمنين بأُمّ ولا يمكن لزيد أن يكون ابناً لها.

لقد أشار زيد إلى ما رسمه القرآن الكريم في آيات النساء وخطّه كمنهج وبرنامج عملي لنساء النبيّ ﷺ وذكّر عائشة به، فطالبها بالرجوع إلى بيتها، وأن تترك أمر الرجال للرجال، ودون ذلك فلا حرمة لها ولا حقّ لها بالافتخار بلقب «أُمّ المؤمنين»، بل إنّ زيداً أشار إلى وظيفة أُخرى تترتّب على عموم المسلمين في مثل هذه الحالات، وهي الأخذ على يد الناكث، وسل السيف في وجه عائشة ومنابذتها حتّى يردّها إلى بيتها ويجتثّ الفتنة. ويذكر الطبري أنّ زيداً كان يقول عقب هذه الرسالة:

«رحم الله أُمّ المؤمنين، أُمرت أن تلزم بيتها وأُمرنا أن نقاتل، فتركت ما أُمرت به وأمرتنا به، وصنعت ما أُمرنا به ونهتنا عنه»[1].

ونرى هنا أنّ زيداً يعلم بأنّ الآية الكريمة ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ تأبى لعائشة ما تكلّفته من دور، وتحظر عليها ما تصدّت له من مهمّة ادّعت أنّ الوظيفة والواجب الشرعي يمليه عليها، فركبت جملها وخرجت تدّعي الطلب بدم عثمان! وهو يعلم كذلك أنّ آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ...﴾ أوكلت أمر زعامة الأمّة وإمامتها لأمير المؤمنين الذي هو من «**أهل البيت**عليهم السلام»، وأنّ عليه نصرة هذا الإمام والدفاع

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤: ٤٧٧.

عنه حينما تشتدّ المحنة ويحتدم الصراع في ميادين الحروب.

إنّ حديث وفعل زيد، كلامه وموقفه العملي، يكشف عن علمه بأنّ قضايا الإسلام المصيرية لم توكل إلى النساء، وبأنّ آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ...﴾ لم تطهّر عائشة ولم تنزّهها؛ لأنّها ما نزلت في شأنها، لذا فهو عَجِبٌ ومذهول، عَجَب استنكار وذهول رفض من تصرّفات عائشة.

فما كان لزيد أن يتردّد ويرتاب في موقف عائشة لو أنّه كان يرى أنّ آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ...﴾ قد نزلت في أُمّهات المؤمنين وشملتهنّ، وأنّ الإرادة التكوينيّة لله سبحانه وتعالى عصمتهنّ عن الرجس والعيب والخطأ، وما كان ليصف عملها هتكاً لحدود الله ومخالفة لأحكامه، وكأنّي به يقول: إنّ عمل عائشة هو حجّة على الآخرين إذ نزّهها الله، وأراد إرادة تكوينية أزلية أن لا ترتكب خطيئةً ولا خطأً، فلا يصحّ أن نشكّ في أعمالها ونتردّد في مواقفها، ولكنّنا نجد في المقابل أنّ جملة واحدة مختصرة من أُمّ سلمة أقنعته بتولّي أمير المؤمنين عليه السلام وطاعته ما قاله حال استشهاده. لماذا يعتمد زيد بن صوحان رضوان الله عليه حديث أُمّ سلمة في حقّ عليّ عليه السلام ويبادر في اتخاذه حجّة، وفي المقابل يصف سلوك عائشة هتكاً لحرمات الإسلام ومخالفة للشريعة الغرّاء؟ هل الأمر إلّا رؤيته وفهمه بأنّ آية التطهير لا تشمل عائشة وزوجات النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ الرعاية الربّانيّة في العصمة والتنزيه تشمل عليّاً عليه السلام وبقية أهل البيت عليهم السلام فقط، وأنّ أُمّ سلمة رضي الله عنها صارت أهلاً للثقة والاعتبار؛ لتمسّكها بالوظائف وعملها بالواجبات التي شرعها القرآن الكريم لخصوص نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، فبلغت

ذلك المستوى من الوثاقة بحيث ضحّى الرجل بنفسه وبلغ الشهادة في سبيل الدفاع عن أمير المؤمنينعليه‌السلام اعتماداً على حديث نقلته رضوان الله عليها عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله في حقّ عليّعليه‌السلام وفضله؟

موقف ابن عبّاس :

لمّا هزم أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه‌السلام أصحاب الجمل بعث عبدالله بن عبّاس إلى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل وقلّة العرجة.

قال ابن عبّاس: «**فأتيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة ، فطلبت الإذن عليها فلم تأذن ، فدخلت عليها من غير إذنها ، فإذا بيت قفار لم يعدّ لي فيه مجلس! فإذا هي من وراء سترين فضربت ببصري فإذا في جانب البيت رحل عليه طنفسة ، فمددت الطنفسة فجلست عليها ، فقالت من وراء الستر: يا ابن عبّاس أخطأت السنّة! دخلت بيتنا بغير إذننا وجلست علىٰ متاعنا بغير إذننا ، فقال ابن عبّاسرحمه‌الله: نحن أولى بالسنّة منك ، ونحن علّمناك السنّة وإنّما بيتك الذي خلّفك فيه رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله فخرجت منه ظالمة لنفسك غاشية لدينك عاتبة على ربّك عاصية لرسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلّا بإذنك ، ولم نجلس على متاعك إلّا بأمرك ...**»[1].

إنّ قول ابن عبّاس هذا ـ وهو حبر الأمّة ومفسّر القرآن ـ يبيّن أنّ الآيات الواردة في نساء النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله حظرت عليهنّ التدخّل في القضايا

---

(١) اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي: ٥٧ ـ ٥٨ الرقم ١٠٨، قاموس الرجال ٦: ٤١٩ ـ ٤٢٠، بحار الأنوار ٣٢: ٢٦٩ ح ٢١٠ .

السياسية، وأنهنّ يفقدن اعتبارهنّ بل ويفقدن حتّى ما للمرأة المسلمة العادية من احترام إذا ما تخلّفن عن الالتزام بهذه الآيات والأحكام.

كانت هذه نماذج من فهم وانتزاع وعمل بعض رموز الطبقة الأُولى من شخصيات الإسلام حول آيات نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر توخّياً للاختصار وحذراً من الإطالة.

المهمّة والدور الآخر:

سبق أنْ بيّنا أنّ ممّا أرادته آية التطهير هو إناطة دور ومهمّة خاصّة بأهل البيت عليهم السلام، مهمّة تتطلّب الطهارة والنزاهة في أعلى سطوحها وأرفع مستوياتها، وسنرى أنّ هذه المهمّة ليست إلّا إمامة المسلمين وقيادتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما صرّح به أهل البيت عليهم السلام مراراً وتكراراً، وهنا سنذكر بعض النماذج التي ذكر فيها أئمّة الحقّ والهدىٰ آية التطهير في معرض استدلالهم علىٰ حقّهم فيما تناولوه وتصدّوا له من مناظرات ومحاججات حول الخلافة:

١ - في سقيفة بني ساعدة:

بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله تنازع المهاجرون والأنصار، وكان أوّل من تجمّع في السقيفة عدّة من الأنصار من الذين نهضوا بنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله عند هجرته إلى المدينة، وكان سعد بن عبادة أكثرهم سعياً لتولّي الخلافة والاستحواذ عليها، ولكن أبا بكر وعمر لم يدّخرا

وسعاً في إيصال أنفسهما سريعاً إلى السقيفة[1] حتّى لا تذهب جهود سنين متمادية قضياها في التخطيط والعمل لهذا اليوم، تذهب أدراج الرياح باستباق الأنصار! وفي ذلك الجمع الغاصّ والمحفل الملتهب والأجواء المضطربة بدأ أبو بكر الكلام فخطب، وكان آخر ما اقترحه أن تكون الإمرة للمهاجرين والوزارة للأنصار، ولكن اقتراحه هذا سقط بمعارضة حبّاب بن منذر الذي كان من زعماء الأنصار، وكاد الأمر أن يتمّ علىٰ هوىٰ سعد بن عبادة ووفقاً لمراده، لولا تدخّل ابن عمّه بشير بن سعد الخزرجي في موقف مفاجئ رجّح فيه أن تكون الزعامة للمهاجرين، وأن يوكل الأمر إلى أحد رؤوس قريش، ولم يكن بشير هذا علىٰ ما يرام مع ابن عمّه سعد، وما كان موقفه يخلو من دواعي المنافسة والحسد له، وبعد جدل ومناظرة وخبط ولغو امتدّ طويلاً ووسط غوغاء وفوضىٰ ومعارضة هذا وذاك خُلعت الخلافة على أبي بكر...

طرب عمر لهذا الحدث وانتشىٰ، ورأى أنّ أحلامه السعيدة في طريقها للتحقّق من خلاله، وأنّه سيكون فارس الميدان وله فرس السبق في الساحة الإسلامية، ولكن في الوقت نفسه كان هاجس عليّ عليه السلام يقضّ مضجعه، ترى هل يشمّر ابن أبي طالب عليه السلام عن ساعده ويطالب بحقّه؟ وحسماً لهذا القلق عمد إلى دار عليّ عليه السلام واقتاده إلى أبي بكر[2]، فامتنع

(١) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٧ .

(٢) هذا قول ابن أبي الحديد، والكلام ليس في معرض البحث حول بتر التاريخ وتحريفه، وإلّا فالمقام مليئ بما ينبغي بيانه حول هذه الواقعة الأليمة...

عليّ عليه السلام عن البيعة وأصرّ على امتناعه، ولم يكن عمر ليخلّي سبيل أمير المؤمنين عليه السلام، فما كان من شبل ابن أبي طالب عليه السلام إلّا أن فجّرها في وجهه: «احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً، ألا والله لا أقبل قولك ولا أُبايعه»[1].

وهنا نعق المرتزق الأجير أبو عبيدة، ولم يكن يملك من دليل لدفع الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام إلّا حداثة سنّه! وفي ردّ هذه الأباطيل والترّهات نهض أمير المؤمنين عليه السلام باحتجاجه القاصم، وكان ممّا استدلّ به آية التطهير، وهذا نصّ حديثه صلوات الله عليه: «يا معشر المهاجرين، الله الله، لا تُخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحنُ أهلَ البيت أحقُّ بهذا الأمر منكم. أما كان منّا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنّة، المضطلع بأمر الرعية، والله إنّه لفينا، فلا تتّبعوا الهوى فتزدادوا من الحقّ بُعداً» فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعَتْه منك الأنصار يا عليّ قبل بيعتهم لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، ولكنّهم قد بايعوا[2].

التفاتة أدبية:

يرتكز الاستدلال هنا على نقطة أدبية لطيفة جاءت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ يقول سلام الله عليه: «نحنُ أحقُّ بهذا الأمر» وهي جملة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١١.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١٢.

اسمية ذات مبتدأ وخبر تخلّلتها عبارة «أهل البيت» وقد وردت في حديث أمير المؤمنين عليه السلام بفتح «أهلَ» على ما ورد في نقل ابن أبي الحديد، خلافاً للقاعدة النحوية التي توجب رفع «أهل» على البدلية، وهذا ممّا يدلّ على الاختصاص وإشارتها للآية الكريمة ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ كما جاءت في الآية منصوبة للاختصاص، من قبيل قوله «نحن معاشرَ الأنبياء...»[1] حيث جاءت «معاشرَ» منصوبة للاختصاص وإفادة الحصر.

من هنا يصبح معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام هو: إنّنا أهل البيت ـ ولا غير ـ أحقّ منكم أيّها المهاجرون بالزعامة والخلافة، وأنّه ثوب لا يليق إلّا بنا على نحو الحصر ووجه التعيّن، كما ذهبت الآية فيما قرّرته من أنّ الطهارة وبالتالي الزعامة محصورة ومختصّة بأهل البيت، وهكذا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام وهو في معرض الاستدلال والمحاججة على أحقّيته بالخلافة في ذلك المحفل المُصطنع وأمام ترّهات أبي عبيدة، يكتفي بالاحتجاج بآية التطهير لإثبات حقّه، مع المندوحة والسعة وما هو مبذول لديه ومبثوث في أيدي المسلمين من فضائل وكمالات ومرجّحات تشكّل شهادات وبراهين قاطعة على أعلميته وأعدليّته وأقربيّته من رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي وجوب وضرورة تقدّمه وتأخّر غيره... مع كلّ ذلك نجده سلام الله عليه يكتفي بسوق هذه الآية والاحتجاج بها، وقد كانت دلالة هذه الآية من الوضوح والتسالم بحيث عقّب بشير بن سعد قائلاً: لو كان هذا الكلام سمعَتْه منك الأنصار يا عليّ

---

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢٣١ ح٤٧.

قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان، ولكنّهم قد بايعوا.

٢ ـ في الشورىٰ:

يروي السيّد هاشم البحراني قدّس الله نفسه الزكية ـ وهو من أجلّة علماء ومحدِّثي القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجري، وله مؤلّفات كثيرة، منها تفسيره المعروف «البرهان» ـ في كتابه «غاية المرام» في الصفحة ٢٦٥ عن ابن بابويه القمي حديثاً معتبراً عن عامر بن واثلة، وهو من كبار أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وضمن تلك الرواية نلمح هذه العبارة، ثمّ ذكر ما احتج به أمير المؤمنين عليه السلام على أهل الشورىٰ، فقال في ذلك: نشدتكم هل فيكم أحدٌ أنزل الله فيه آية التطهير على رسوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...﴾؟ قالوا: اللهمّ لا»[1].

ويلاحظ هنا أنّ أُسلوب المولى سلام الله عليه في المحاججة لا يكتفي بالتقرير بل يأخذ شكل الاستفهام، وأنّه يدين القوم بألسنتهم وبما لا يمكنهم إنكاره، فيقول: هل نزل في أحد منكم آية التطهير؟

إذن فإمامنا العزيز سلام الله عليه أشار في موضعين حسّاسين إلى الآية الكريمة، وأنّها تثبت استحقاقه وتعيّن الأمر فيه بمفهوم: أنّ آية التطهير حسمت مسألة القيادة، وأن من قصدتهم الآية هم الوحيدون

---

(١) في كتاب الاحتجاج للطبرسي هناك رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام في احتجاجات أمير المؤمنين عليه السلام على الستّة أصحاب الشورىٰ، يذكر فيها أمير المؤمنين عليه السلام آية التطهير في جملة ما احتجّ به على القوم، ج ١ ص ١٩٢.

القادرون على إمامة المسلمين والنهوض بزعامتهم:

الأوّل: عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي خضم تعيين الخليفة، ولم يكن قد مضى الكثير في ذلك الحين من زمن نزول الآية.

الثاني: في شورىٰ عمر السداسية التي أوكل إليها تعيين الخليفة من بعده، وتمكّن بالاحتيال بها من إقصاء عليّ عليه السلام عن حقّه مرّة ثالثة هناك في تلك الشورى، التي تشكّلت بعد ثلاث عشرة سنة تقريباً من وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، وثلاث عشرة سنة وبضعة شهور على نزول آية التطهير، نجد أنّ علياً عليه السلام يذكّرهم بها، ويطرح من جديد أولويته بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وانفراده دونهم بهذا الحقّ من خلال التذكير والاستدلال بآية التطهير الشريفة.

٣ ـ في خلافة الإمام الحسن عليه السلام:

عندما آلت الخلافة إلى السبط الأكبر الإمام الحسن بن علي عليهما السلام قام خطيباً فقال:

«أيّها... الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد النبيّ صلى الله عليه وآله، ... أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله، وأنا ابن السراج المنير، ... وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[1].

نرىٰ هنا كيف أنّ ثاني أئمّة المسلمين في معرض استدلاله على كفاءته ولياقته لمسند الإمارة والخلافة يشير ـ فضلاً عن تميّزه النَسَبي ـ

(١) الأمالي للشيخ الطوسي: ٢٧٠ ح ٥٠١، بحار الأنوار ٤٣: ٣٦١ ح ٣.

إلى آية التطهير ويستشهد بها.

ولو لم تكن هذه الآية في معرض تعريف وتحديد خصائص القائد ومميّزاته وما يجب أن يتحلّىٰ به من العدالة والعصمة والبراءة من كلّ عيب ونقص لما استدلّ واستشهد بها ثاني أئمّة الهدىٰ صلوات الله عليه لإثبات حقّه ومشروعيّة تصدّيه لهذا المقام.

إنّ هذه الشواهد الحيّة تفيض دلالة علىٰ مكانة أهل البيت عليهم السلام واختصاصهم بالولاية والإمامة، وخروج الزوجات من هذا العنوان...

■ ▣ ■

النكتة الثانية:

البحث في شأن نزول الآية وترتيبها

سنتعرّض في هذا المبحث لأمرين مهمّين:

١ ـ هل جملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ نزلت بصورة منفصلة عن آيات النساء، أم أنّها جاءت في سياق تلك الآيات وأعقبتهنّ؟

٢ ـ وإن كان نزولها منفصلاً، فلماذا جاء ترتيبها بعد آية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ولم تنفرد بآية مستقلّة؟

١ ـ استقلالية جملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾:

حتّى نقف على موقع الآية من حيث الاستقلال والانفصال، لابدّ أن نركّز التحقيق على شأن النزول، إذ سيتّضح لنا أنّ جملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ نزلت في شأن خاصّ ولقضيّة هامّة، وواقعة وظرف زماني ومكاني منفصل تماماً عن ظرف آيات النساء، ومن الطبيعي أن لا سبيل للبحث في شأن النزول إلّا بتتبّع الأخبار الواردة عن طرق العامّة والخاصّة. وغاية ما نستفيده من البحث القرآني والتدبّر في تلك الآيات أنّ جملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ لمّا جاءت في إثر آيات النساء، وعقب آية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...﴾ فلا مناص من القول بأنّها نزلت جميعاً في واقعة واحدة، إذ أنّنا نعتقد بأنّ منهج تدوين القرآن الكريم ـ الذي تمّ

بأمر من رسول الله ﷺ ـ وترتيب الآيات فيه خاضع لقاعدة خاصّة يحكمها ترابط الآيات، وطبقاً لهذا الأصل المتّفق عليه فنحن نرى أن آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ نزلت في حال توجّه الخطاب الإلهي لزوجات النبيّ ﷺ بجملة من الوظائف والواجبات المفروضة عليهنّ.

من هنا يتّضح أنّه لا سبيل للتحقّق من نزول هذا المقطع ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ بشكل منفصل عن بقيّة الآيات إلّا بتتبّع الروايات التي تتحدّث عن شأن نزول هذه الآية.

ومع كثرة هذه الروايات ـ حتّى إنّ المحدّث الكبير السيّد هاشم البحراني نقل في «غاية المرام» إحدى وأربعين منها من طرق العامّة، وأربعاً وثلاثين رواية من طرق الإماميّة[1] ـ لابدّ في البداية من سرد بعض هذه الروايات، ونرى أن نبدأ بما روي من طرق العامّة.

القسم الأوّل: روايات العامّة

هذه مجموعة من الروايات المعتبرة، المرويّة بأسانيد معتمدة وفق قواعد أبناء العامّة في الجرح والتعديل وتصحيح الأسانيد، ممّا ذكر في كتاب «تفسير ابن كثير» الذي يُعدّ من أشهر تفاسيرهم، نسردها بحذف الإسناد توخّياً للاختصار.

١ ـ تقول أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ : **إنّ النبيّ ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة** ـ رضي الله عنها ـ **ببرمة فيها خزيرة، فدَخلتْ عليه بها، فقال لها: أُدعي زوجك وابنيك، قالت: فجاء عليٌّ وحسنٌ وحسينٌ** ـ رضي الله

(١) غاية المرام: ٢٨٧ ـ ٣٠٠.

عنهم ـ فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخَزيرة وهو على منام له ، وكان تحته صلى الله عليه وآله كساء خيبريّ . قالت: وأنا في الحجرة أُصلّي ، فأنزل الله عزّوجلّ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . . .﴾ قالت ـ رضي الله عنها ـ: فأخذ فضل الكساء فغطّاهم به ، ثمّ أخرج يده فألوى بها إلى السماء ، ثمّ قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت: وأنا معكم يارسول الله؟ فقال: إنّك إلى خير ، إنّك إلى خير[1].

٢ ـ عن حكيم بن سعيد قال: ذكرنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عند أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ . . .﴾، قالت أمّ سلمة: جاء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيتي فقال: لا تأذني لأحد ، فجاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثمّ جاء الحسن ـ رضي الله عنه ـ فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل علىٰ جدّه واُمّه ، وجاء الحسين ـ رضي الله عنه ـ فلم أستطع أن أحجبه عن جدّه واُمّه ، ثمّ جاء عليّ ـ رضي الله عنه ـ فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فجلّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله بكساء كان عليه ، ثمّ قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت: فقلت: يارسول الله وأنا؟

(١) المسند لأحمد بن حنبل ١٠: ١٧٧ ح ٢٦٥٧٠ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي ٣: ٤٩٢.

قالت: فوالله ما أنعم، وقال: إنّك إلى خير[١].

٣ ـ عن أبي سعيد الخدري، عن أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إنّ هذه الآية نزلت في بيتي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: يارسول الله ألستُ من أهل البيت؟ فقال ﷺ: إنّك إلى خير، أنت من أزواج النبي. قالت: وفي البيت رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم[٢].

٤ ـ عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله: نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي عليّ وحسن وحسين وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾[٣].

٥ ـ عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبيّ ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه ثمّ جاء الحسين فأدخله معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثمّ جاء علي فأدخله معه، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾[٤].

٦ ـ عن العوام يعني ابن حوشب قال: دخلت مع أبي علىٰ عائشة فسألتها عن علي ـ رضي الله عنه ـ فقالت: تسألني عن رجل كان من أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحبّ الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال: اللهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٤٩٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٤٩٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٤٩٣.

عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. قالت: فدنوت منهم فقلت: يارسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقالﷺ: تنحّي فإنّك إلى خيرٍ[١].

نظرة في الروايات العامّة:

تتّفق الروايات التي تنتهي إلى أُمّ سلمة وعائشة وتلتقي على أمر مهمّ؛ هو أنّ آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ نزلت في دار ومخدع أُمّ سلمة، وأنّه كان يخلو حين نزول هذه الآية الشريفة إلّا منها ومن النبيّﷺ وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام، ولم يكن هناك أحد من الأعراب، وهي تقرّ قائلة: مع أنّني كنت في الدار وكنت إلى جواره، ومع شديد شوقي وتطلّعي أن أُشرَك في هذه الفضيلة وأن تشملني الآية، إلّا أنّ النبيّﷺ أبىٰ ذلك وردّني بلباقة ودماثة خلق.

ومع ما يلحظ من تفاوت في ألفاظ النصّين الأوّلين ومضمونيهما، إلّا أنّ ذلك لا يخدش بحال بالنتيجة التي خلصنا إليها، وهي أنّ الآية نزلت في دار أُمّ سلمة، وأنّه لم يكن هناك في ذلك الحين أحد سواها والنفر الذين نزلت الآية في حقّهم: فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها عليهم السلام.

يُحتمل بقوّة أنّ الحديث الرابع الذي يرويه أبو سعيد، عن النبيّﷺ هو نفسه الحديث الثالث الذي يرويه عن أُمّ سلمة، والظاهر أنّ اسمها سقط من السند، وكلا الاحتمالين يثبتان حقيقة نزول هذه الآية في الخمسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم.

وفي الرواية الخامسة تعترف عائشة أنّ رسول اللهﷺ تلا تلك

---

(١) المصدر السابق ٣: ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

الآية في حقّهم: علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام، ولكن بصورة يلفّها شيء من الإبهام والغموض! فلا إشارة إلى مكان النزول وفي بيت مَنْ مِن أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله نزلت، ولعمري ما نظنّها ـ وهي الشابّة قويّة الذاكرة ـ كانت ستنسىٰ، أو ما كانت ستذكر وتمرّ مرور الكرام على مكان نزول الآية لو كان في بيتها! وهذا بحدّ ذاته قرينة أُخرى على أنّ الآية نزلت في دار أمّ سلمة، ولكنّها غَيْرَة النساء و«الحسد داء الضرائر»!

ونقل الحديث السادس لما يحويه من اعتراف الزوجة الشابّة الصريح بأنّ أهل البيت الذين أرادتهم آية التطهير هم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها عليهم السلام، وهي تقرّ وتعترف أنّ زوجها رسول الله صلى الله عليه وآله قد صرّح لها بأنّها «**ليست من أهل البيت** عليهم السلام» مع أنّ عائشة كانت جزءاً من عائلة النبيّ، هذا يكشف عن تقصّد النبيّ وتعمّده إخراجها من شمول الآية الشريفة، وأنّها شخصياً وقفت على هذا المعنى بحيث لم يمكن لها إلّا الاعتراف به.

لا معارض لهذه الأحاديث:

وباستقصاء ما ورد في الباب من روايات العامّة يتبيّن عدم وجود رواية مُعارضة لهذه الروايات الستّة أو ما يعارض مضمونها. وإن لم تتعرّض بعض الروايات لكيفية النزول، ولم يكن في بعضها الآخر ذكر لمحلّ نزول الآية والبيت المخصوص من بيوت النساء الذي نزلت فيه، أو أنّ الرواة اكتفوا بذكر أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ آية التطهير ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ**...﴾ نزلت في الخمسة أصحاب الكساء، أو أنّه صلى الله عليه وآله تلاها في حقّهم،

أو أنّ الرواة استشهدوا بها في مقام ذكر فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ هذا لا يتنافى مع ما نحن بصدد إثباته، إذ لا يفترض ـ على القاعدة ـ في الرواة أن يسردوا ويتناولوا جميع الجزئيات التي واكبت الحدث بشكل تفصيلي، فقد ينقل بعضهم جانباً والبعض الآخر جانباً غير الأوّل، ولكن ما التقى عنده جميع الرواة ولم يعارضه أحد منهم هو أنّ نزول الآية كان في شأن الخمسة أصحاب الكساء: محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وبهذا يتحقّق المطلوب.

هكذا يتّضح أنّه لا يوجد أي مُعارض لهذه الروايات الستّ ومضامينها، وحريّ برجال التحقيق للمزيد من التثبّت، مراجعة أُمّهات المصادر كالصحاح الستّة، تفسير ابن كثير، تفسير الدر المنثور، تفسير الطبري، أو كتاب غاية المرام لسيّدنا المحدِّث الجليل السيّد هاشم البحراني ـ أعلى الله مقامه ـ الذي جمع جملة من هذه الأحاديث.

نعم، وردت هناك رواية تتعارض مع هذه الستّة، وهي رواية زينب بنت جحش إحدى زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، التي نقلت أنّ آية التطهير إنّما نزلت في بيتها، وقد كان عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله حين نزول الآية الشريفة، وواضح هنا أنّ التعارض لم يمس إلّا مكان النزول دون من نزلت في حقّهم. ولكن الروايات التي تحدّد مكان النزول على أنّه بيت أُمّ سلمة رضوان الله عليها مستفيضة، ولا يمكن لرواية أو روايتين معارضتين أن تواجه هذا السيل المتدفّق، وهنا يسقط المعارض تلقائياً عن الاعتبار.

هذا، مع أنّ رواية زينب لا تخدش ما توخّيناه وأثبتناه كونها تناولت حيثيّات وتفاصيل القضية من زاوية أخرى هي مكان نزول

الآية الشريفة، وهذا لا يمس ـ كما أسلفنا ـ شأن النزول وبأنّ الآية نزلت في حقّ أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، بل أنّها أقرّت بذلك وأمضته.

ملكيون أكثر من الملك!

ومع أنّ زوجتي النبيّ ﷺ؛ أُمّ سلمة وعائشة اعترفتا وأذعنتا بأنّ آية التطهير لم تُردهما ولم تُرد أيّاً من نساء النبيّ ﷺ، وأنّها تختصّ بالخمسة أصحاب الكساء، إلّا أنّ هناك من أبى إلّا أن يُدخل نساء النبيّ ﷺ في خصوص الآية ويلحقهنّ بأهل البيت عليهم السلام، بل يختصّهنّ بها دون أهل البيت!

هنا نسلّط الضوء على هؤلاء «المتطفّلين»، وينقسمون إلى طائفتين: الأُولى، بعض رواة صدر الإسلام أمثال عكرمة، مقاتل بن سليمان، وعروة بن الزبير. والطائفة الثانية، جمع من مفسّري العامّة.

الطائفة الأولى:

ينبغي التنويه إلى أنّ هذه الطائفة طرحت بشكل عام موقفها من الآية من منطلق رؤيتها الشخصية وتحليلها الخاص، لا أنّها تنسبه برواية إلى رسول الله ﷺ أو أزواجه أو صحابته، ومن المسلّمات أنّ آراء هؤلاء لا تضفي على الموضوع أيّة مشروعية ولا تشكّل أيّة حجّة، إذ تبقى آراؤهم الخاصّة، هذا لو لم يكونوا مطعونين ومشكوكين فكيف وقد كانوا كذلك؟!

هذا عكرمة يقول: «إنّ آية التطهير لا تشمل إلّا نساء النبيّ ﷺ»!

ويمعن ويغرق في الأمر إلى حدّ الدعوة إلى مباهلة من ينكر ذلك، وكان يرفع صوته المنكر في الأسواق منادياً بأنّ آية التطهير نزلت في نساء النبيّ! ولعمري ما قيمة كلام عكرمة وما هي خصوصيّة هذا الرجل وما هو محلّه من الإعراب حتّى يرجّح رأيه على رأي الآخرين؟!

وينضمّ عروة بن الزبير إلى عكرمة وصفّ مصفّه في الادّعاء وفي الردّ، أمّا ما ينسبه عكرمة أو غيره إلى ابن عبّاس ويرويه عنه من نزول آية التطهير في نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، فممّا ينبغي البحث عنه في الدواعي والبواعث التي حدت بهم إلى هذا الافتراء، الذي خالفوا به ما اتّفق عليه المعتبر من روايات العامّة، وما صرّحت به عائشة وأمّ سلمة، ولنبحث في أفكارهم وشخصيّاتهم ونستخلص البواعث على مواقفهم تلك.

عكرمة (مولى ابن عبّاس):

يُعدّ عكرمة من ألد أعداء أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يبعد أن يكون موقفه هذا تفريغاً لحقد أمَضّه، ولحساب شخصي أو غِلّ في تصفيته!

يذكر السيّد الجليل العلّامة شرف الدين في كتابه «الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء عليها السلام»:

وكان عكرمة ينادي في الأسواق[1] تحاملاً على أصحاب الكساء، ولا عجب، فإنّ عكرمة من الدعاة إلى عداوة عليّ عليه السلام

(١) فيما نقله عنه جماعة كثيرون منهم الواحدي في كتاب أسباب النزول: ٢٤٠، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ١٤١، الفصل الأوّل في الآيات الواردة فيهم عليهم السلام.

والسعاة في تضليل الناس عنه بكلّ طريق. فعن يحيى بن بكير قال: قدم عكرمة مصر وهو يريد المغرب، قال: فالخوارج الذين هم في المغرب عنه أخذوا[1]. وعن خالد بن عمران قال: كنّا في المغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم فقال: وددت أنّ بيدي حربة، فاعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً ـ لبنائه على كفر عدا الخوارج من أهل القبلة ـ.

وعن يعقوب الحضرمي، عن جدّه قال: وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلّا كافر، قال: وكان يرى رأي الأباضية ـ وهم من غلاة الخوارج ـ.

وعن ابن المديني: كان عكرمة يرى رأي نجدة الحروري ـ وكان نجدة من أشدّ الخوارج عداوة لأمير المؤمنين ـ.

وعن مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأي الخوارج.

وعن عطاء: كان عكرمة أباضياً.

وعن أحمد بن حنبل: أنّ عكرمة كان يرى رأي الصفرية ـ وهم من غلاة الخوارج أيضاً ـ.

وحدّث أيّوب عن عكرمة أنّه قال: إنّما أنزل الله متشابه القرآن ليُضلّ به! ـ فانظر إلى آرائه ما أخبثها ـ.

وعن عبدالله بن الحارث قال: دخلت على عليّ بن عبدالله بن

---

(١) نقل ياقوت الحموي في معجم الأُدباء ١٢: ١٨٤ عن القاضي الجعابي بأنّه حيث أتى علىٰ ذكر عكرمة في كتاب الموالي: أنّ عكرمة دخل في رأي الحرورية الخوارج، ونقل عن أبي عليّ الأهوازي أنّه يميل إلى استماع الغناء، قال: وقيل عنه: إنّه كان يكذب على مولاه.

العبّاس فإذا عكرمة في وثاق، فقلت: ألا تتّقي الله؟ فقال: إنّ هذا الخبيث يكذب على أبي[1].

وعن ابن المسيب أنّه قال لمولى له اسمه برد: لا تكذب عَلَيّ كما كذب عكرمة على ابن عبّاس[2].

تتبلور لنا صورة وشخصية عكرمة من هذه العبارات التي نقلها العلّامة شرف الدين، وذكرها من مصادر العامّة وكتبهم الرجالية المعتبرة، فعكرمة مفتر كذّاب، عديم الضمير والإيمان، ليس بثقة، من ألدّ أعداء أمير المؤمنينعليه السلام، ومن هنا يتّضح هدفه من تبنّي رأيه الشاذّ في آية التطهير، والسرّ في هذا الشذوذ، وما هو إلّا بغض عليّعليه السلام وعداؤه له، واللهث في سبيل إزاحة منقبة من مناقب عليّعليه السلام، ونزع حلّة زيّنه بها القرآن وخلعها على غيره، وإن كان سعيه عن طريق نسبة الحديث إلى ابن عبّاس، فهذه هي طريقته في الافتراء على مولاه، وإلّا فإنّ النقل عن ابن عبّاس تعدّدت طرقه في أنّ آية التطهير لم تنزل في نساء النبيّصلى الله عليه وآله، وأنّها لم تشملهنّ، ومن هذه ما يرويه أحمد بن حنبل بسنده عن عمرو بن ميمون قوله: «... وأخذ رسول اللهصلى الله عليه وآله ثوبه فوضعه على عليّ وفاطمة وحسن وحسين فقال: إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ

---

(١) هذا لفظ الذهبي في ميزان الاعتدال ٣: ٩٤ نقلاً عن عبدالله بن الحارث. والذي نقله ياقوت الحموي في ترجمة عكرمة من معجمه عن عبدالله بن الحارث قال: دخلت على عليّ بن عبدالله بن عبّاس ـ وعكرمة موثق على باب الكنيف ـ فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ فقال: إنّ هذا يكذب على أبي، معجم الأُدباء ١٢: ١٨٤.

(٢) الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراءعليها السلام للعلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين، ص ٢٠ ـ ٢٢.

عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»[١].

وخلاصة القول: أنّ رأي عكرمة الجاهل بالقرآن، المعادي لأهل البيت ساقط عن الاعتبار، ولا حجّية له بتاتاً.

مقاتل[٢]:

أمّا مقاتل، فيذكر العلّامة شرف الدين أعلى الله مقامه عنه «**أنّه أيضاً كان عدوّاً لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان دأبه صرف الفضائل عنه حتّى افتضح بذلك. قال إبراهيم الحربي ـ كما في ترجمة مقاتل من وفيات الأعيان لابن خلكان ـ: قعد مقاتل بن سليمان فقال ـ إطفاءً لنور أمير المؤمنين عليه السلام ـ: سلوني عمّا دون العرش، فقال له رجل: آدم صلّى الله عليه وسلّم حين حجّ مَنْ حَلَقَ رأسه**[٣]**؟ فقال له: ليس هذا من علمكم. وقال الجوزجاني ـ كما في ترجمة مقاتل في ميزان الذهبي ـ كان مقاتل دجّالاً جسوراً، سمعت أبا اليمان يقول: قدم هاهنا فأسند ظهره إلى القبلة وقال: سلوني عمّا دون العرش قال: وحدّثت أنّه قال بمثلها بمكّة، فقام إليه رجل فقال: أخبرني عن النملة أين**

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل ١: ٧٠٩ ح٣٠٦٢.

(٢) مقاتل بن سليمان البلخي أو البجلي المتوفّى في البصرة ١٥٠هـ، ذكر الزركلي في أعلامه أنه كان متروك الحديث (ج٧: ٢٨١) وذكره المامقاني في رجاله حيث نقل أنه قيل لأبي حنيفة: قدم مقاتل، قال: إذن يجيئك بكذب كثير، (تنقيح المقال ٣: ٢٤٤ طبعة النجف).

(٣) وفيات الأعيان ٥: ٢٥٥، الرقم ٧٣٣.

أمعاؤها؟ فسكت[١].

وكان مقاتل مع ذلك كلّه من كبار المرجئة وغلاة المشبهة بنص جماعة، منهم: ابن حزم في كتابه «الفصل»[٢] وعدّه الشهرستاني في الملل والنحل من رجال المرجئة[٣]، وقال أبو حنيفة ـ كما في ترجمة مقاتل من ميزان الاعتدال ـ: أفرط جهم في نفي التشبيه حتّى قال: إنّه تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل ـ يعني في الإثبات ـ حتّى جعله مثل خلقه، وقال أبو حاتم بن حبان البستي ـ كما في ترجمة مقاتل من تهذيب الكمال للمزّي ـ: كان مقاتل يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مشبّهاً يشبّه الرب عزّوجلّ بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك في الحديث»[٤]،[٥].

وبهذه الترجمة لمقاتل التي أثبتها العلّامة الفقيد شرف الدين من كتب القوم ومصادرهم يسهّل الحكم على رأيه في آية التطهير، وما زعمه من نزولها في نساء النبيّ ﷺ ! فالتهافت نال وقدح في شخصه وشخصيّته، وليس مجرّد دعواه ومقالته. وحقّ أن نتمثّل:

تصدّر للتدريس كلّ مهوّس بليد يُسمّى بالفقيه المدرّس

(١) أحوال الرجال للجوزجاني: ٢٠٢، الترجمة ٣٧٣، ميزان الاعتدال ٤: ١٧٤ الرقم ٨٧٤١.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ٢٠٥.

(٣) الملل والنحل ١: ١٢٨.

(٤) كتاب المجروحين لابن حبّان ٣: ١٤، تهذيب الكمال ٢٨: ٤٥٠.

(٥) الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء للعلّامة السيد عبد الحسين شرف الدين: ص١٩ـ٢٠.

يحقّ لأهل العلم أن يتمثّلوا ببيت قديم شاع في كلّ مجلس
لقد هزلت حتّى بدا من هزالها كلاها وحتّى رامها كلّ مفلس[١]

عروة:

ثالث من كان يُأوِّل آية التطهير بنساء النبيّ ﷺ هو عروة بن الزبير.

يذكر صاحب قاموس الرجال في ترجمة عروة: «روى **المسعودي في مروجه عن حمّاد بن سلمة قال: كان عروة بن الزبير يعذّر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم، وحصره إيّاهم في الشعب وجمعه الحطب لتحريقهم، ويقول: إنّما أراد بذلك إرهابهم ليدخلوا في طاعته كما أُرهب بنو هاشم وجُمع لهم الحطب لإحراقهم فيما سلف[٢] (يعني يوم السقيفة). وقد تظاهرت الرواية عن عروة أنّه كان يأخذه الزمع عند ذكر عليّ عليه السلام فيسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأُخرى ويقول: وما يمنعني أنّه لم يخالف إلى ما نُهي عنه، وقد أراق من دماء**

(١) الأبيات لأحمد بن الحسين المؤدب، وصدر بيته الثالث «لقد هزلت» مَثَل يضرب في الاستصغار والاستخفاف بمن ادّعى ما ليس له وتلبّس بغير لباسه، وقد قابلت بها بيتاً بالفارسية تمثّل به المؤلّف في المقام مؤثّراً ذلك على ترجمته، إذ لا يفسد الشعر شيء مثل ترجمته، والبيت هو:
أي مگس عرصه سيمرغ نه جولانگه تست
عرض خود مى‌برى و زحمت ما ميدارى

(٢) مروج الذهب ٣: ٧٧.

المسلمين ما أراق؟»[1].

ويكفي هذا المقدار لبيان مستوى هذا الرجل ومدى عدائه ومعاندته لأمير المؤمنين عليه السلام، وهكذا جهله وحقده، ويصدق في حقّه أنّه ممّن لو ولج بحر القرآن المتلاطم لما حظي حتّى بقطرة منه، ولو انقدحت من نفسه الخبيثة شرارة ما كانت لتوقد إلّا من لهيب الحقد، وإن نسب قولاً فما يفرغ إلّا عن الافتراء والبهتان!

الطائفة الثانية:

ذكرنا آنفاً أن الطائفة الثانية ممّن يرى أنّ آية التطهير شملت نساء النبيّ صلى الله عليه وآله أو نزلت فيهنّ على وجه الحصر، تضمّ فئة من علماء العامّة وأرباب التفاسير عندهم. وقد انصبّت حجّة هؤلاء على أدلّة ثلاثة، نقول في ردّها:

١ ـ إذا كان الدليل على الانحصار أو الشمول هو وقوع الآية الشريفة (التطهير) ضمن آيات كانت تخاطب نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، فإن ردّ ذلك قد تبيّن في كون الآيات المتعلّقة بالنساء لا تحكي عن الإرادة التكوينية للباري عزّوجلّ في عصمتهنّ، وهي خلوّ ممّا يثبت فضلهنّ وحتمية طهارتهنّ. أمّا آية التطهير فهي في مقام تقرير المشيئة الربانية الحتمية في طهارة ثلّة معيّنة هي «أهل البيت عليهم السلام»، يثبت بذلك فضلها وأفضليّتها، فكيف يمكن أن تشمل آية تحوي هكذا دلالة أُناساً احتملت الآيات السابقة سقوطهنّ في الرجس واتّباعهنّ زينة الدنيا

(١) قاموس الرجال ٧: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(نساء النبيّ صلى الله عليه وآله)، وسيأتي لاحقاً المزيد من التفصيل في هذا الباب.

٢ ـ إذا كان دليلهم أنّ تتابع الآيات ووحدة السياق يقتضي ما ذهبوا إليه من الانحصار أو الشمول، فإنّ هذا لا يربو إلّا أن يكون قرينة لا دليلاً قائماً بذاته، وقد رأينا كيف تهافتت هذه القرينة وسقطت أمام الأحاديث المتّفقة على التصريح بأنّ الآية عنت الخمسة أصحاب الكساء لا غيرهم، وكيف أقرّت النسوة: عائشة وأمّ سلمة أنفسهنّ بهذه الحقيقة وأذعنتا لها.

٣ ـ وإن كانت حجّتهم في وجود روايات معارضة دلّت على شمول الآية لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد بيّنا أنّ رواة هذه الأحاديث من أضراب عكرمة ومقاتل وعروة إنّما نقلوا آراءهم الخاصّة أو افتروا على ابن عبّاس، واتّضح فيما سبق أنّ علماء العامّة أنفسهم فيما بحثوه من أحوال هؤلاء في كتب الجرح والتعديل أسقطوهم عن الاعتبار والوثاقة، ونسبوهم إلى الكذب وفساد العقيدة.

وعلى هذا لا يبقى لذي ضمير حيّ وإنصاف، بعيد عن الجدل الأجوف من سبيل إلّا الإذعان بأنّ آية التطهير إنّما نزلت في الخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام، ولا مناص من الإقرار بأنّ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله لا نصيب لهنّ من هذه المنقبة العظيمة والفضل الإلهي الجزيل.

القسم الثاني: روايات أهل البيت عليهم السلام

تناول البحث فيما مضى الروايات الواردة عن طرق العامّة، وفي هذا الباب نستعرض بعض الأحاديث الشريفة التي نقلت عن أهل

البيت عليهم السلام.

تزخر كتب الشيعة ومجاميعهم الروائية بأحاديث كثيرة حول آية التطهير ذكرت في مواضع وبمناسبات مختلفة، وقد أشرنا في صدر البحث إلى الأربعة وثلاثين حديثاً التي نقلها السيّد هاشم البحراني في كتابه «غاية المرام» وسنذكر هنا بعض الأحاديث التي أوردها المحدِّث الجليل الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي المتوفّى (١١١٢ هـ) في تفسيره القيم «نور الثقلين»:

١ ـ في تفسير علي بن إبراهيم: وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ...﴾ قال: **نزلت هذه الآية في رسول الله وعليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، وذلك في بيت أُمّ سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، ثمّ ألبسهم كساءً خيبريّاً ودخل معهم فيه، ثمّ قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي الذين وعدتني فيهم ما وعدتني، اللهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت أمّ سلمة: وأنا معهم يارسول الله؟ قال: أبشري يا أمّ سلمة فإنّك إلى خير**[1].

٢ ـ في كتاب الخصال، في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على الناس يوم الشورى، قال: **أنشدكم الله هل فيكم أحدٌ أنزل الله فيه آية التطهير على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كساءً**

---

(١) تفسير القمّي ٢: ١٩٣، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٠.

خيبريّاً فضمّني فيه وفاطمة والحسن والحسين، ثمّ قال: يارِبّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً غيري؟ قالوا: اللهمّ لا[1].

٣ ـ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنينعليه السلام، أنّه قال في أثناء كلام له في جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد أيّام خلافة عثمان: أيّها الناس أتعلمون أنّ الله عزّوجلّ أنزل في كتابه ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ...﴾ فجمعني وفاطمة وابنيَّ حسناً وحسيناً وألقى علينا كساءً، وقال: اللهمّ إنّ هؤلاء أهل بيتي ولحمتي يؤلمني ما يؤلمهم ويحرجني ما يحرجهم، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت أمّ سلمة: وأنا يارسول الله؟ فقال: أنت ـ أو إنّك ـ على خير، إنّما أُنزلت فيّ وفي أخي وابنتي وفي تسعة من ولد ابني الحسين خاصّة ليس معنا فيها أحد غيرنا، فقالوا كلّهم: نشهد أنّ أمّ سلمة حدّثتنا بذلك، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وآله فحدّثنا كما حدّثتنا أمّ سلمة رضي الله عنها[2].

٤ ـ في رواية صحيحة يرويها أبو بصير، عن الإمام الصادقعليه السلام ننقل منها موضع الشاهد لما نحن بصدده: «... ولكن الله عزّوجلّ أنزله في كتابه لنبيّه صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أمّ سلمة، ثمّ قال: اللّهمّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهل بيتي

(١) الخصال ٢: ٥٦٠، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٢.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة ١: ٢٧٨، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٢.

وثقلي. فقالت أمّ سلمة: ألست من أهلك؟ قال: إنّك إلى خير ولكن هؤلاء أهلي وثقلي»[١].

تناسق الأخبار وانسجامها (ثمرة البحث):

بلغ مجموع ما ذكرناه في القسمين عشر روايات شملت مختارات من الأحاديث المعتبرة المنقولة بالطريقين، ستّة أحاديث من طرق العامّة وأربعة من طرق الخاصّة: أي شيعة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، ويقف المتتبّع على تناسق قلّ نظيره بين هاتين الطائفتين من الأخبار على اختلاف طرق النقل وتباين المدارس المذهبية والعقائدية! واستناداً إلى هذه الأخبار العشرة يمكننا الخروج بنتائج واضحة نعرضها ملخّصة مختصرة كبنود أساسية تمثّل حصيلة البحث وثمرته:

١ ـ إنّ آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ نزلت مستقلّة ومنفصلة، وتدوينها ضمن الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب، بعد الآيات التي خاطب فيها الشارع المقدّس أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وحدّد فيها بعض تكاليفهنّ، لا يحمل أيّ مدلول على تتابع الخطاب واستمرار الموضوع. وهذه الثمرة هي الهدف الأساسي من هذا البحث.

٢ ـ الآية الكريمة نزلت في بيت أمّ سلمة رضوان الله تعالىٰ عليها.

٣ ـ إنّ أُمّ سلمة وعائشة كلتيهما اعترفتا بأنّ الآية لا تشملهنّ، بل أقرّتا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أكّد لهنّ بأنّ عليهنّ أن لا يتوقعن أن يكنَّ في نطاق آية تضع أُسس بُنية المجتمع الإسلامي، وترسم الاستراتيجية الإسلامية

(١) الكافي ١: ٢٨٧، تفسير العياشي ١: ٢٥٠، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٤.

في نوع وشكل ومصداق القيادة وامتداد خط الهدى من بعده، وهي العنصر الأساسي لضمان مستقبل الحركة، وعليهنّ أن يكتفين فخراً بصفة الزوجية، وأنّ السعادة في انتظارهنّ إذا ما عملن وتقيّدن بالأوامر والنواهي الإلهية التي رسمت حدودهنّ، وحظرت عليهنّ التدخّل في القضايا العامّة، والخوض في الشؤون السياسية وإثارة الفتن والمعوّقات في طريق الولاية والإمامة الحقّة للمسلمين، وكنموذج لحسن العاقبة وتحديد لصفتها طرحت الروايات أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة رضوان الله عليها، وهذه المرأة الجليلة العفيفة التي بشّرها النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّها «إلى خير» أو «على خير»، وحدّثنا التاريخ كيف أنّ «الخير» كان في بقائها في بيتها بعيداً عن ميادين الحروب ومعتركات السياسية!

٤ ـ المتواجدون في بيت أُمّ المؤمنين، وخير زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله من الأحياء حين نزول الآية: أي بيت أُمّ سلمة، عدا النبيّ صلى الله عليه وآله هم أسرة تفيض فضلاً وفضيلة، رجل وزوجته وابناهما: عليّ وفاطمة والحسنان صلوات الله وسلامه عليهم، أي ابن عمّ النبيّ وصهره وابنته وسبطاه عليهم السلام.

٥ ـ نزول الآية الشريفة كان حين اجتماع الخمسة صلوات الله عليهم لا قبل ذلك، هذا ما يُستفاد من الأحاديث المنتهية إلى أمّ سلمة وأبي سعيد الخدري، وهكذا الأحاديث الأربعة المروية عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام بما تقرّره من اختصاص الآية بالخمسة أصحاب الكساء وكونها غير ناظرة لغيرهم.

٦ ـ دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله لأهل بيته **«اللهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»** كان في المقام والمكان نفسه الذي نزلت فيه الآية، إذ

عمد بعد نزول الآية مباشرة إلى ذويه وجمعهم تحت الكساء ودعا بدعاء «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي...»، وكأنّه صلوات الله عليه وآله أراد تأكيد مضمون الآية وتحديد مصداقها على وجه الحصر، ودفع أيّ وهم قد يعتري أحداً من أنّها تشمل غيرهم.

وبعبارة أُخرى: يظهر أنّ للنبيّ ﷺ هدفاً عظيماً وغايةً ساميةً من وراء عملية جمع أهله وذويه تحت الكساء، وهي حصر واختصاص المقام الإلهي الشامخ الذي ناله المخاطبون في آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...﴾ بهؤلاء المجموعين تحت الكساء، حتّى لا يدّعي في الحاضر أو المستقبل أحد أنّه من المشمولين بالآية وينتحل لنفسه ذلك المقام الخطير؛ مقام العصمة والطهارة، الذي ما أراده الباري عزّوجلّ إلّا لقادة دينه وأئمّة خلقه وورثة رسوله، فجاء فعل النبيّ ﷺ، بل قوله أيضاً ـ إذ ما اكتفى بجمعهم تحت الكساء بل صرّح وهو يشير إليهم: «هؤلاء أهل بيتي...» ـ المباشر لنزول الآية؛ ليحسم الأمر ويقطع أيّ نزاع حاضر أو مستقبل حول دلالتها والمخاطبين فيها.

ثمّ هلمّ لنرى التحامل والجهل كيف يصوّران واقعة الكساء والتجمّع الخاصّ المعين أمراً طبيعياً لم يكن يعني أكثر من استلقاء للراحة أعقب تناول وجبة دسمة من الطعام! وكيف أنّ تقادم الأيّام حوّل هذه الحادثة الطبيعية إلى فضيلة ومنقبة تُساق دليلاً ومستنداً للاستحواذ على زعامة المسلمين والتصدّي لمقام القيادة.

ولعمري ماذا عسانا أن نقابل هذا الزعم الأجوف والقول الأعمى؟ ترى هل انحصر وقوع هذا الحدث «الطبيعي» مرّةً واحدةً فقط على مدى تلك السنين المتمادية؟ ترى هل اجتماع النبيّ ﷺ مع بقيّة

أصحاب الكساءعليهم السلام لتناول الطعام لم يتحقّق إلّا في مرّة واحدة، وأنّ الحاجة إلى الاستلقاء والاستراحة بعد تناول الطعام لم يكن إلّا في ذلك اليوم؟ أيّ تقاليد وأعراف «طبيعية» تسمح بالتقاء خمسة أشخاص من الأقرباء على ذلك النحو وبتلك الكيفية؟!

ثمّ كيف يمكن للزمن وتقادم الأيّام أن يؤثّر في تحوير أمر طبيعيّ وتحويله إلى منقبة وفضيلة خاصّة؟! كيف يمكن لأمير المؤمنينعليه السلام أن يستند إلى «قضيّة طبيعيّة» ويحتجّ بها في مراحل متعدّدة من المعترك العسير، الذي كانت التيّارات السياسية المتنافسة تتناهب فيه الزعامة وتتجاذبها، فيتّخذها عروة وثقىٰ ويتمسّك بها دون غيرها، وهو عليّعليه السلام الذي يقول «ينحدر عنّي السيل، ولا يرقى إليّ الطير...»[1]؟! لعمري كم الحقيقة مُرّة، والإذعان لها عسير بحيث يعمد الإنسان إلى طمسها وإسدال ستار الوهم عليها، ويعمل على إضلال جمع ممّن خفيت عليهم!

هل كلّ ما شطح به الخيال ورسمه قلم الكاتب على الأوراق هي حقائق؟ فما هو الفيصل بين الحقّ والباطل إذن؟ وما هو السبيل لتمييز الصلاح عن الفساد؟

لماذا نقلب الحقيقة ونجحدها ونحن نصوّر فضيلة عظيمة طرحت منذ البداية كعنوان مُعرّف لثلّة وجماعة خاصّة، وترسّخت عبر أقوال وممارسات متكرّرة، نطرحها كحدث طبيعي وأمر عادي يذهب بالمدلول ويمحوه؟ ترى هل لهذا الفعل المشين من تسمية غير ظلم أهل

---

(١) نهج البلاغة: ٢٦، الخطبة ٣ (الخطبة الشقشقية).

البيت وإنكار حقّهم؟!

نعم، لا ريب في أنّ هدف النبيّ ﷺ من جمع تلك الثلّة تحت الكساء وتعقيب ذلك بعبارة «**هؤلاء أهل بيتي**» كان سلب أيّة صفة وعنوان يفيد التعميم من الآية، وأنّ زوجات النبيّ ﷺ وعموم أقربائه وعشيرته لا نصيب لهم في هذه الآية ولا اختصاص لهم بها، ومن هنا جاء قول الصادق عليه السلام: «**لو سكت رسول الله ﷺ ولم يبيّن مَنْ أهلُ بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان...**»[1] وهذا ممّا يؤكّد اهتمام النبيّ ﷺ وحرصه على حسم هذا الأمر، فما اكتفى بالقول بل عمد إلى أسلوب مبتكر في تحديد المراد من أهل البيت عليهم السلام، بحيث أخرج أُمّ سلمة ـ صاحبة البيت ـ قولاً وعملاً من ذلك النطاق المقدّس، وحصره بالخمسة عليهم السلام.

٧ ـ إنّ آية التطهير تشمل النبيّ ﷺ أيضاً، ورواية أبي الجارود، عن الإمام الباقر عليه السلام وأبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ تصرّح بهذا المعنى، وهذه النقطة ممّا يهمّنا التركيز عليها لدورها في بيان معنى أهل البيت الذي سنتناوله لاحقاً.

٢ ـ موقع الآية في التدوين:

هنا سؤال يطرح نفسه، بعد إثبات إنفصال آية التطهير واستقلاليتها في النزول وشأنه والدلالة وما إلى ذلك ممّا مرّ فيه الحديث، وهو: لماذا جاء تدوينها في هذا الموضع بالذات، في ذيل الآية الثالثة

(١) الكافي ١: ٢٨٧، البرهان في تفسير القرآن ١: ٣٨٢.

والثلاثين من سورة الأحزاب ؟

قبل الدخول في جواب هذا السؤال والبحث في هذه النكتة الهامّة، لابدّ من ملاحظة المنهج القرآني والقواعد التي تمّ وفقها تدوين القرآن الكريم وترتيب آياته.

ترتيب الآيات :

ممّا لا شكّ فيه أنّ الصورة الفعلية لنظم القرآن الكريم وتأليفه تمثّل القمّة والكمال المطلوب في هذا المقام، وهي مطابقة لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّه دُوّن وجُمع بهذا الشكل الموجود عليه اليوم في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وحياته.

وهناك شواهد كثيرة على هذا المدّعى، وهو ممّا يقول به كبار العلماء من الشيعة والسنّة، من قبيل شيخ الطائفة الطوسي ورئيس المحدّثين الشيخ الأقدم الصدوق القمّي والسيّد الجليل علم الهدى وصاحب مجمع البيان، بل يصدق أنّ جميع القائلين بعدم تحريف القرآن، الذين يشكّلون الأكثرية المطلقة من العلماء المحقّقين يذعنون لهذا المعنى، أي أنّ القرآن الكريم جُمع وألّفت آياته وسوره على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما يظهر من بعض استدلالاتهم، وللوقوف على تفاصيل الموضوع نحيل القارئ إلى كتاب «البيان في تفسير القرآن» وإلى كتابنا «مدخل التفسير في علوم القرآن». ولإثبات المطلوب نكتفي هنا بذكر مسألة ودليلين:

مسألة هامّة :

هناك حقيقة مشهودة وأمر ملموس في القرآن الكريم يكتشفه المتدبّر في آياته، وهي أنّ لهذا الكتاب السماوي بدايةً وجذراً أصيلاً ومنبعاً واحداً، وأنّ الآيات الكريمة تترى الواحدة تلو الأُخرى باتجاه هدف معيّن، وتعود لتصبّ في مصبّ واحد، بحيث يبتني منهج الاستدلال وكيفيّته ـ إلى حدّ ما ـ في كلّ آية على الآية التي سبقتها.

يبدأ كتاب الله العظيم، القرآن الكريم بسورة الحمد، التي تعرف بـ «فاتحة الكتاب»، وهذا العنوان يكشف عن أنّ للقرآن بداية ونهاية، وإذا لم يكن تدوين القرآن وجمعه قد تمّ على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله فلا محلّ ولا معنى لإطلاق هذه الصفة على سورة الحمد ـ التي احتلّت في عملية التدوين بداية هذا الكتاب السماوي ـ وأن يذكرها النبيّ صلى الله عليه وآله بهذا العنوان «الفاتحة».

ولعلّ السرّ في البدء بهذه السورة وافتتاح القرآن بها أنّها تمثّل فهرساً وقائمةً مركزةً ومختصرةً لمطالب ورسالة القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم بصدد رسالتين أساسيّتين في طريق هداية البشرية وسعادتها: «الإيمان بالله والإقرار بالمعاد ويوم الجزاء» وتأتي قصص الأنبياء في القرآن مثلاً لتحكي وتبيّن ردود فعل الأُمم السابقة، وكيف أنّ الرقي الإنساني والسعادة والنعم الربانية كانت قرينة الاستجابة لدعوات الأنبياء والإيمان بهم، وأنّ التعاسة والشقاء والانحطاط كان حليف الكفر وإنكار الرسالات والنبوّات، وإنّ سورة الحمد تضمّ خلاصة مواضيع أساسية من هذا القبيل، وتشكّل عصارة الأهداف المقدّسة للقرآن الكريم.

ولمّا كانت هذه السورة فهرساً لمواضيع الكتاب، وتمثّل أبرع مستهلّ، حقّ أن تكون لها الصدارة وأن يبدأ بها الكتاب، ولا يمكن فرض احتمال أن يكون ذلك من قبيل الصدفة، ودون إرشاد ممّن أُرسل بالكتاب الكريم صلوات الله عليه وآله، إذ هو الوحيد الذي يمكنه الوقوف على جميع أسرار هذا السفر المقدّس ورموزه الغيبية، ونترك متابعة البحث في هذا الموضوع لمقام آخر.

الدليل الأوّل

الدليل الأوّل على أنّ القرآن الكريم جُمع وألّف علىٰ عهد النبيّ ﷺ عموم الأحاديث النبويّة الشريفة، التي أرجعت المسلمين إلى القرآن، مثل حديث الثقلين، والأحاديث التي أرشدت المسلمين وطالبتهم بعرض ما يُنسب لرسول الله ﷺ على القرآن، ودلالتها على وجود كتاب محدّد يحوي بين دفتيه ما أنزل من القرآن الكريم، هناك روايات يرتكز ظهورها في خصوص تأليف القرآن وجمعه ووجوده على عهد رسول الله ﷺ.

منها: ما نقله صاحب تفسير «البيان»[1]:

روى الطبراني وابن عساكر عن الشعبي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستّة من الأنصار: أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت

(١) المرحوم آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي.

ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وسعد بن عبادة وأبو زيد[١]. وروى قتادة قال: سألت أنس بن مالك: مَنْ جمع القرآن على عهد النبيّ ﷺ؟ قال: أربعة كلّهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[٢]. وأخرج النسائي بسند صحيح عن عبدالله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كلّ ليلة، فبلغ النبيّ ﷺ فقال: اِقرأه في شهر[٣]. ويذهب مؤلّف البيان، استناداً لهذه النصوص إلى أنّ القرآن جُمع في عصر النبيّ ﷺ، وللمزيد من التفاصيل يُراجع هذا الكتاب[٤].

ويظهر من مفاد بعض الروايات أنّ الرسول ﷺ كان يحدّد لكتّاب الوحي موضع ومكان كلّ آية بعد نزولها، ويعيّن ترتيبها في السور وبين الآيات، فقد ورد في تفسير الدرّ المنثور: أخرج أحمد، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شَخَصَ بصرُه ثمّ صوّبه حتّى كاد أن يلزقه بالأرض. قال: ثمّ شخص ببصره فقال: أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ إلى قوله ﴿تَذَكَّرُونَ﴾[٥]. وروى جماعة، منهم: أحمد والترمذي والنسائي وابن حبّان والحاكم والبيهقي عن ابن

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢: ٢٦١ ح٢٠٩٢، كنز العمّال ٢: ٥٨٩ ح٤٧٩٧.

(٢) صحيح البخاري ٦: ١٢٥، باب القرّاء من أصحاب النبيّ ح٥٠٠٣.

(٣) الإتقان (للسيوطي) النوع ٢٠ ج١: ٧٢، لم نجده في سنن النسائي، بل وجدناه في حلية الأولياء ١: ٢٨٥.

(٤) البيان في تفسير القرآن: ٢٦٩.

(٥) المسند لأحمد بن حنبل ٦: ٢٧٢ ح١٧٩٤٠، الدرّ المنثور ٤: ١٢٨، الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٣٤٩.

عبّاس أنّ عثمان قال: إنّ رسول الله ﷺ كان ممّا يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا[١].

يتّضح من هذين الحديثين أنّ القرآن في عهد النبيّ ﷺ كان على شكل سور، والسورة عبارة عن مجموعة متتالية من الآيات تبدأ بـ«بسم الله» وتمضي على ترتيب معيّن، ويتّضح أيضاً أنّ الآيات المختلفة النازلة في مختلف السور إنّما أخذت مواقعها الخاصّة، بناءً على أوامر من رسول الله ﷺ عيّن فيها هذه المواقع وحدّدها. وعلى هذا فإنّ تحديد السور ومواضع الآيات وترتيبها كان ممّا تمّ وأُنجز على عهد رسول الله ﷺ، وهذان الأمران يشيران إلى أنّ تدوين الكتاب تمّ بإشراف النبيّ ﷺ وعلمه.

أضف إلى ذلك أنّ التاريخ والروايات تؤكّد أنّ النبيّ ﷺ كان يتلو في صلواته سوراً معيّنةً، ممّا يعني أنّ هذه السور كانت قد أخذت شكلها وإطارها الذي تحدّدت فيه بدايتها ونهايتها وتتالي الآيات فيها، ويؤيّد ذلك الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ في فضيلة قراءة السور[٢]، بل إنّ القرآن الكريم ذاته يذكر أحياناً هذا العنوان «سورة» كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾[٣] والمقصود بها سورة النور، وفي معرض التحدّي

---

(١) كنز العمّال ٢: ٥٧٩ ح ٤٧٧٠، البيان في تفسير القرآن: ٢٦٨.

(٢) راجع بحار الأنوار ج ٩٢.

(٣) النور: ١.

والإعجاز يقول عزّ من قائل: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[1] أو ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾[2] فإن لم تكن «السورة» معيّنة وآياتها وبدايتها ونهايتها محدّدة ومشخّصة، وكانت آيات مبعثرة على جريد النخل والصحائف واللحف والعسب وصدور الرجال، كيف صحّ أن يقول القرآن: فأتوا بسورة من مثله، أو عشر سور مثله؟

وهناك شواهد كثيرة على هذه الحقيقة، وإذا ما أُمعن النظر في الروايات وأقوال كبار المحقّقين لتبدّدت جميع الشكوك، وقُطع بأنّ هذا القرآن الموجود بين أيدينا اليوم هو ذاته المصحف الذي جمعه رسول الله ﷺ وألّف بين آياته وسوره، وكمثال على هذه الشواهد ننقل كلام أحد أعاظم الشيعة، السيد المرتضى علم الهدى أعلى الله مقامه.

ينقل الشيخ الطبرسي ـ وهو من أجلّة علماء الإمامية في القرن السادس الهجري ـ في مقدّمة تفسيره «مجمع البيان» وهو من التفاسير الشيعيّة القيّمة، عن السيّد الأجلّ علم الهدى مقالة في جمع القرآن وتدوينه، وذكر أنّ المقالة جاءت في جوابه المعروف عن «المسائل الطرابلسيات»، ونحن نذكر منه هنا مقدار الحاجة ممّا يتعلّق بموضوعنا فقال: **«إنّ القرآن ـ الموجود بين ظهرانينا اليوم هو نفسه القرآن الذي ـ كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن، ودليل ذلك أنّه كان يدرس ويُحفظ جميعه في ذلك الزمان، حتّى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنّه كان يعرض**

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) هود: ١٣.

على النبيّ ﷺ ويتلى عليه، وأنّ جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأُبيّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ ﷺ عدّة ختمات. وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث، ومن خالف في ذلك من الإمامية والحشَوية لا يُعتد بخلافهم، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث، نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحّتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته»[1].

كان هذا قول عالم محقّق جليل يعود لألف سنة خلت، وبملاحظة مبنى هذا العَلَم (السيّد المرتضىٰ) في عدم حجّية أخبار الآحاد، وتصريحه بأنّ دليله في القول على جمع القرآن وتأليفه في حياة رسول الله ﷺ وجود روايات مقطوع بصحّتها، فمن المؤكّد أنّ هذه الروايات لا ينالها أيّ شكّ وترديد، من هنا فنحن نتعامل مع رأي هذا السيّد الجليل كمستند معتبر، ونكتفي بهذا المقدار من البحث في الدليل الأوّل.

الدليل الثاني:

الدليل الثاني على جمع القرآن وتأليفه على عهد رسول الله ﷺ، دليل اعتباري يمكن تعقّله وقبوله:

لا يمكن احتمال وتصوّر أنّ النبيّ ﷺ الذي كان يبذل غاية جهده، ويولّي كلّ اهتمامه للآيات القرآنية الشريفة سواء في نزولها أو حفظها،

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، المقدّمة: ١٥ـ١٦.

كان سلبياً تجاه تنظيم هذه الآيات القرآنية وجمعها، وأنّه ـ والعياذ بالله ـ كان مهملاً لذلك! وهو المعجزة الخالدة لبعثته والكتاب السماوي الخاتم وآخر رسالات الله للبشرية.

إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله الذي قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين»[1] ثم اعتبر «الكتاب» الثقل الأكبر والأوّل، لا يمكن القول: بأنّه صلى الله عليه وآله كان يقصد من الثقل الأكبر تلك الآيات المبثوثة في الصحائف أو المحمولة في الصدور، وأنّه أوكل جمعها وفوّض تنظيمها في مصحف مرتّب يعني تمام «الكتاب» إلى غيره، فيخضع الأمر للأمزجة والرغبات والاجتهادات الخاصّة، إن لم نقل للميول والأهواء والأغراض والمصالح الخاصّة! إنّ هذا التوكيل والتفويض يستلزم المساس بالقرآن والإخلال به، ممّا يعني التفريط بأمر حيوي وأساسي يوقع الأمّة في فوضىٰ وضياع، ومنع ذلك والحؤول دون وقوعه هو دور ومهمّة المرسل بالكتاب، وحاشا أن يخلّ النبيّ صلى الله عليه وآله بواجباته ووظائفه. وعلى هذا فإنّ العقل يأبى بشدّة فرضية عدم جمع وتدوين القرآن على عهد النبيّ، وأنّه صلى الله عليه وآله لم ينهض بهذا الدور بل أوكله إلى غيره.

وإن قلنا: بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله أناط هذه المهمّة بأمير المؤمنين عليه السلام وهو ربيب بيت الرسالة ورضيع درّ الوحي، والعليم بمواقف التنزيل ومواضع الآيات ومواقع السور، وأنّ عليّاً عليه السلام نفسه كان يعلن أنّه يحتفظ لديه

---

(١) الكافي ١: ٢٣٣، الخصال ١: ٦٥ ح٩٧، المسند لأحمد بن حنبل ٤: ٣٠ ح١١١٠٤، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٦٥ ح٢٦٧٩، ورواها المجلسي بطرق عديدة في بحار الأنوار ٢٣: ١٠٦ ـ ١٥٢.

بالقرآن النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه مودع عنده. فإنّ مقصود عليّ عليه السلام هو القرآن المحتوي على التفسير والتأويل، المشتمل على تحديد أسباب النزول وكشف الغوامض والأسرار، وبيان حقائق ما أرادتها مجملات الآيات وتخصيص عموماتها، ممّا خصّ النبيّ صلى الله عليه وآله به ابن عمّه وخليفته من بعده من علوم. وبعبارة أخرى: **أنّ قرآن عليّ عليه السلام ما هو إلّا شرح للقرآن المؤلف المجموع على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله**، ومثل هذا الكتاب لا يوجد إلّا عند عليّ وأئمّة الهدى عليهم السلام من بعده، وهو من شأن **«الذين عندهم ما نزلت به رسل الله وهبطت به ملائكته وإلى أخيه أوجدّهم بُعث الروح الأمين»**[1] الذين لا يمكن لغيرهم حمله، يتوارثونه كابراً عن كابر مع بقية ودائع النبوّة ومواريث الإمامة، وهو اليوم محفوظ عند إمام العصر المهدي من آل محمّد الحجّة ابن الحسن عجّل الله تبارك وتعالىٰ فرجه، الذي سيملأ الأرض بعدل الكتاب وهو يطبقه آية بآية ويحكمه حرفاً بحرف.

كلام عليّ عليه السلام حول القرآن:

ولبيان صحّة ما ذهبنا إليه آنفاً، نحيل القارئ الكريم إلى كتاب «الاحتجاج» للطبرسي، وفيه حديث مفصّل لحوار بين عليّ عليه السلام وطلحة حول هذه الوديعة السماوية، ننقل مختصراً منه ممّا نحن بصدده. يقول عليه السلام:

«يا طلحة، إنّ كلّ آية أنزلها الله جلّ وعلا على محمّد صلى الله عليه وآله عندي

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٦، بحار الأنوار ١٠٢: ١٣٢ ح ٤.

بإملاء رسول الله ﷺ وخطّ يدي، وتأويل كلّ آية أنزلها الله على محمّد ﷺ وكلّ حرام وحلال، أو حدّ أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأُمّة إلى يوم القيامة، مكتوب بإملاء رسول الله ﷺ وخطّ يدي حتّى أرش الخدش. قال طلحة: كلّ شيء من صغير وكبير أو خاصّ أو عام كان أو يكون إلى يوم القيامة فهو عندك مكتوب؟ قال: نعم، وسوى ذلك، إنّ رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في مرضه مفتاح ألف باب من العلم يفتح من كلّ باب ألف باب، ولو أنّ الأُمّة منذ قبض رسول الله ﷺ اتبعوني وأطاعوني لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم... ثمّ قال طلحة: فأخبرني عمّا في يدك من القرآن وتأويله وعلم الحلال والحرام إلى من تدفعه ومن صاحبه من بعدك؟ قال: إنّ الذي أمرني رسول الله ﷺ أن أدفعه إليه وصيّي وأولى الناس بعدي بالناس ابني الحسن، ثمّ يدفعه ابني الحسن إلى ابني الحسين، ثمّ يصير إلى واحد بعد واحد من ولد الحسين حتّى يرد آخرهم حوضه»[1].

إذن فالكتاب الذي لدى عليّ عليه السلام يحمل مواصفات، هي:

١ ـ مدوّن فيه كلّ ما نزل على النبيّ ﷺ بخط عليّ عليه السلام.

٢ ـ فيه تأويل كلّ آية.

٣ ـ فيه جميع الأحكام من الحلال والحرام: الواجبات والمستحبّات، والحدود، وكلّ ما يحتاجه الناس إلى يوم القيامة، وهو من الدقّة والتفصيل بحيث فيه حتّى أرش الخدش.

٤ ـ لا ينبغي لهذا الكتاب أن يقع في أيدي عامّة الناس، ولا أن

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ١: ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

يطّلعوا عليه، بل إنّ رسول الله ﷺ أوصى عليّاً عليه السلام وأمره بالاحتفاظ به عنده وتسليمه إلى ابنه الحسن عليه السلام من بعده، ومن ثمّ إلى الحسين عليه السلام وهكذا حتّى آخر الأئمّة والأوصياء، أي الإمام المهدي المنتظر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

بعد بيان هذه الأوصاف، هل يمكن لأحد الزعم بأنّ هذا الكتاب هو ذاته القرآن الواقعي المنزّل على رسول الله ﷺ؟ من الواضح أنّ جواب هذا السؤال منفيّ ـ بناءً على قول أمير المؤمنين عليه السلام ـ لأنّ في هذه المجموعة تفصيل كلّ حكم، أعمّ من الخاصّ والعام، الكلّي والجزئي، فأنت لا تشاهد في هذا الكتاب الآيات المنزلة على رسول الله ﷺ فحسب، بل تجد تأويلها أيضاً، إنّه وديعة يجب أن تبق بأيدي أوصياء النبيّ؛ ليكونوا محيطين مطّلعين على جميع أسرار الدين ومآل الأمور ونتائجها.

فالقرآن هو مجموع الآيات التي نزلت على قلب النبيّ ﷺ، بينما كتاب عليّ عليه السلام يحوي إضافة إلى ذلك تأويل الآيات، وهو شيء آخر غير الآيات نفسها بطبيعة الحال، والقرآن ينبغي أن يكون في متناول عامّة الناس، حيث كان رسول الله ﷺ يتلوه ويعلّمه الناس، كما أخبر القرآن نفسه بذلك في قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾[1]، بينما يجب أن تبق آيات الكتاب المستودع عند عليّ عليه السلام وأحكامه محفوظة لديه ولدى الأوصياء من ولده عليهم السلام، بعيدة عن تناول الناس. وعلى هذا لا يمكن القول: إنّهما كتاب واحد، ولا مناص من القول: إنّ

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

مقصود أمير المؤمنينعليه السلام من «القرآن» شيء آخر غير كتاب الله المعهود والمجموع بين الدفتين.

خلاصة هذه الاستدلالات :

قلنا : إنّ كتّاب الوحي قاموا بجمع وبتدوين الآيات وتأليف المصحف على عهد رسول الله وبأمره وإشرافه، وتعرّضنا في ضمن (مسألة ودليلين) إلى إثبات صحّة رأي من ذهب من العلماء والمحققين إلى أنّ القرآن أُلّف وجمع كاملاً مرتّباً في السور والآيات في حياة رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهو القرآن المتداول بين المسلمين اليوم.

وعلى هذا، فإنّ ما نراه اليوم من مواقع السور وترتيب الآيات في المصحف الشريف المتداول بأيدي المسلمين هو نفسه الذي كان في زمن النبيّصلى الله عليه وآله كلّ آية في مكانها وكلّ سورة في موضعها، الذي عيّنه النبيّصلى الله عليه وآله ودوّنه كتّاب الوحي بأمره وإشرافه. إذن فإنّ آية التطهير يجب أن تكون في ذيل الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب، ومحلّها هذا كان بأمر من رسول اللهصلى الله عليه وآله مع ما أثبتناه من كونها آية مستقلّة منفصلة في دلالتها وشأن نزولها والمخاطبين والمعنيين فيها، لكنّها يجب أن تكون في هذا الموضع ويجب أن تتخلّل آيات النساء!

شبهة وتساؤل :

إنّ الأدلّة والبراهين التي ساقها البحث حتّى الآن إنّما أثبتت أنّ القرآن جُمع ودوّن على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وبإشرافه ورقابته، ولكن يبقى هنا سؤال عن القرآن الموجود بين ظهرانينا اليوم، هل هو ذاك

الذي جمعه النبيّ صلى الله عليه وآله؟ ألا يحتمل أنّ الأيدي عبثت وتصرّفت في ترتيب الآيات ومواقع السور خلال هذه الفاصلة الزمنية الممتدّة، خصوصاً وأنّ المشهور اليوم هو أنّ عثمان هو الذي جمع كتاب الله، حتى أصبح يُشار ويُقال: «المصحف العثماني»؟ فإذا فرضنا أنّ عثمان بن عفّان قام أيضاً بجمع القرآن، فمن أين نعلم أنّ القرآن الموجود بين أيدينا اليوم هو الذي نهض رسول الله صلى الله عليه وآله بجمعه لا الذي جمعه عثمان؟ وعليه فإنّ الاستدلال على عدم التصرّف في ترتيب الآيات من منطلق تصدّي النبيّ صلى الله عليه وآله لهذه المهمّة وانجازها في حياته يبقى ناقصاً!

ردّ الشبهة :

يتسالم المحقّقون ويتّفقون على أنّ دور عثمان كان منحصراً في معالجة قراءات القرآن المختَلَف فيها، لعلل وأهداف لا داعي لذكرها، فهو جمع القرآن لا بمعنى جمع الآيات والسور في مصحف واحد، بل جمع الناس على قراءة واحدة، وقد اختار عثمان القراءة المشهورة المتواترة بين المسلمين، القراءة التي أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه وآله فكتب القرآن على تلك الصورة.

إذن، ما فعله عثمان هو أنّه أشاع ونشر نفس الكتاب الذي ألّف رسول الله بين آياته، وفق القراءة المعروفة المتداولة، وثبّتها من بين بقيّة القراءات الأُخرى المختلفة ـ ويرجع سبب اختلاف القراءات إلى حدّ كبير إلى تفاوت اللهجات وبيئات القبائل ـ وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يحوط العملية بالرقابة اللازمة كما جاء في رواية سُويد بن غفلة: أنّ عليّاً عليه السلام قال: **«والله ما فعل ـ عثمان ـ الذي فعل في المصاحف إلّا عن**

ملأٍ منّا»[١]، إذن فعثمان لم يجمع المصحف على هواه ووفق رغبته، وقد أقرّه الجميع على ذلك، ولم يعترض عليه أو ينتقد فعلته أحد من المسلمين[٢].

ولعمري ما كان عثمان ولا غيره قادراً على مس القرآن، وتبديل مواضع السور والآيات فيه، إذ كان المسلمون يحوطون القرآن الذي جمعه ونظّمه رسول الله صلى الله عليه وآله باهتمام وعناية ما كانت تسمح بإسقاط «واو» أو تغيير مكانها في الآية! ففي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن الضريس، عن علباء بن أحمر أنّ عثمان بن عفّان لمّا أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال لهم أُبي (بن كعب): **لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفي على عاتقي، فألحقوها**[٣].

نعم، إنّ وجود حماة أشدّاء يقفون كالليوث مترصدة مراقبة، على رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، يحوطون القرآن بالرعاية والمتابعة لم يكن ليسمح بالعبث والتحريف، أو بتغيير الترتيب والنظم.

ويبقى الحكم التاريخي، كما ذهب بعض المحقّقين، على فعلة عثمان هذه يتأرجح بين إثبات حسنة له وأُخرى سيّئة: فهو من جهة أنهى النزاع والاختلاف في القراءات، وجمع المسلمين على قراءة واحدة متواترة. ولكنّه من جهة أُخرى أقدم على إحراق بقيّة المصاحف، وأمر

---

(١) كنز العمّال ٢: ٥٨٣ ح٤٧٧٧، الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٢٣.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ٢٧٧.

(٣) الدرّ المنثور ٣: ٢٣٢، الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٢٣.

أهالي الأمصار بإحراق ما عندهم من المصاحف، وقد اعترف على عثمان في ذلك جمع من المسلمين حتّى سمّوه «حرّاق المصاحف»![1].

وعلى أيّ حال فهو لم يُدخل ميوله ويُعمل أهواءه في عملية الجمع هذه، وعلى تقدير إقدامه على شيء من هذا فإنّ عمله كان سيُرفض تماماً، وكان سيُواجه خصوصاً من قبل أهل الخبرة والمعرفة بالقرآن الكريم، وكانوا كثيرين، وعلى الأخصّ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، الذي كان محيطاً بجميع خصائص وجزئيات القرآن، منها ترتيب آياته ومواقعها. إذن فإنّ عمل عثمان لم يتعدّ إحياء ذلك المصحف الخالد نفسه الذي خلّفه النبيّ صلى الله عليه وآله.

من هنا يتقرّر: أنّ الكتاب الموجود بين ظهرانينا هو نفسه الذي وضعه النبيّ صلى الله عليه وآله وخلّفه بيد المسلمين قبل ما يربو على ألف وأربعمائة عام ونيف، وهكذا يتقرّر أنّ آية التطهير جاءت في سياق آيات سورة الأحزاب المشار إليها، وأنّ محلّها هو نفسه الذي نعهده في المصاحف الشريفة.

مؤيّد آخر لموضع الآية

يدعم كون آية التطهير جاءت تلو آيات النساء، وأنّ موقعها هذا كان بأمر خاصّ من النبيّ صلى الله عليه وآله. فبعدما فرغنا من إثباته من استقلالية الآية وانفصالها من حيث شأن النزول و... ، يتّضح أنّ تدوين هذه الآية في هذا الموقع ينطوي على سرّ لا يحيط به إلّا من خوطب بالقرآن

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ٢٧٧.

ومن أُنزل عليه وأُوحي إليه، أي الرسول صلى الله عليه وآله نفسه، إذ لو كان أمر الجمع والتدوين قد أوكل إلى الناس لما أخذت الآية هذا المكان (في ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب) ولما توانى القائمون على التدوين ـ وهم يرون أنّ الخطاب في أوّل الآية يتوجّه لنساء النبيّ صلى الله عليه وآله ـ من فصلها في آية مستقلّة ووضعها في موضع يتناسب وسبب النزول والمخاطب فيها، لا أن تدمجان بحيث تحسبان في المجموع من أوّل ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ـ إلى آخر ـ تَطْهِيراً﴾ آية واحدة! وهذا ممّا يدلّ على حكمة وسرّ خاصّ أراده النبيّ صلى الله عليه وآله من هذا الأمر، سنعرض له قريباً.

نستعيد هنا خلاصة ما ذكرناه في المسألة الثانية:

١ ـ آية ﴿إنّما يريد الله﴾ نزلت في دار أُمّ سلمة وبصورة مستقلّة.

٢ ـ كان في دار أُمّ سلمة خمسة أشخاص دخلوا تحت الكساء عند نزول الآية، ولم تكن أُمّ سلمة من هؤلاء الخمسة، وأنّ هذا المعنى متسالم ومتّفق عليه لدى العامّة والخاصّة، حتّى أنّ زوجتي النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أُمّ سلمة الفاضلة وعائشة الفتاة الشابّة اعترفتا بخروجهنّ عن هذا المجمع المقدّس وملتقى الفيض الرحماني.

٣ ـ المتطفّلون، «القيصريون أكثر من قيصر»، الحاسدون، الذين بذلوا كلّ ما في وسعهم لطمس الحقائق وتحريفها بجعل الآية شاملة أو مقتصرة على نساء النبيّ صلى الله عليه وآله ذهبت جهودهم أدراج الرياح.

٤ ـ إنّ آية التطهير جاءت لتخلع على «**أهل البيت** عليهم السلام» حلّة من الفخر والشرف والفضل الذي يميّزهم عن غيرهم ويمهّدهم للدور الذي سيُناط بهم في المستقبل، دور زعامة الأمّة وهدايتها، والهيئة الخاصّة التي اقترنت بنزول الآية (التدثّر بالكساء اليماني) كان بمثابة الإشعار

والعلامة المميّزة التي تقرن النزول بالشأن، وتـزيل اللـبس عـن أيّـة مداخلات تحاول طمس حقيقة مدلول ورسالة الآية، إنّها تحديد عملي وتطبيق خارجي لمفهوم الآية والمراد بها، وإنّ حركة دخول الخـمسة تحت الكساء ونزول الآية ودعاء النبيّ صلى الله عليه وآله وهم على هـذه الهـيئة الخاصّة، هي حركة شبيهة بما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم غدير خم عندما رفع يد أمير المؤمنين ـ حتّى بان بياض إبطيهما ـ وقال: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»[1].

٥ ـ القرآن كتاب منظم يبدأ بسورة الحمد، وقد أُنجز تدوينه وتمّ تأليف آياته وسوره على عهد رسـول الله صلى الله عليه وآله، وأنّـه لم يـتعرّض لأيّ تلاعب، ومواضع الآيات في المصحف الحالي هي ذات المواضع ونفس المواقع التي رتّبها النبيّ صلى الله عليه وآله في عهده دون تغيير أو تبديل.

٦ ـ على ذلك، إنّ موضع آية التطهير هو سورة الأحزاب في سياق الآيات التي خاطبت نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، وعلى التحديد في ذيل الآية الثالثة والثلاثين التي تبدأ بـ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ والتي كـانت بـصدد رسم منهج وتحديد دور وتكليف زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله. وأنّ هذا موافق ومنطبق مع التأليف والجمع الأوّل للقرآن.

أُسرة النبيّ صلى الله عليه وآله وعائلته فريقان:

بملاحظة النظم في هذه الآيات يتجلّى لنا البرنامج الحكيم، والخطة

---

(١) الكافي ١: ٢٩٤، سنن ابن ماجة ١: ٨٨ ح١١٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٨، كنز العمّال ١٣: ١٠٥ ح٣٤٣٤٣.

الإلهية التي وضعها القرآن الكريم لأُسرة النبيّ ﷺ وعائلته، ذلك البرنامج الذي سيعمّ الإسلام البلاد عند تطبيقه، وهذه الخطّة التي سيحتلّ الإسلام على إثر العمل بها مكانته بين الأمم كمشعل هداية للبشرية جمعاء. هذه الخطّة التي سبق أن أشرنا إليها، نقف بعد المزيد من التدقيق والتحقيق على تفاصيلها.

تُصوّر لنا هذه الآيات شكل أسرة النبيّ ﷺ، وهي في نطاقها العائلي الكبير تُدخل جميع دُور رسول الله ومن فيها من نسائه في عضويتها، وهكذا ذرّيّته وأقرباؤه من ابنته وسبطيه إضافة إلى صهره العظيم عليه السلام. ولكن هذه الأُسرة الكبيرة تنقسم في الآيات إلى قسمين وتنشقّ إلى فريقين:

فريق باسم نساء النبيّ ﷺ، ولكن لم تذكر بيوتهنّ باسم بيت النبيّ ﷺ، بل بنفس البيت الذي يسكنّ فيه فأُطلق ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾.

والفريق الثاني أُطلق عليه وسمّي بـ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وقلنا: إنّ أعضاء هذا الفريق خمسة مع صاحب البيت، رئيسهم النبيّ ﷺ.

وبينما نرى أنّ الآيات قد وضعت خطّة وبرنامج عمل من أجل السعادة والنجاة للفريق الأوّل، نجدها ميّزت الفريق الثاني وخصّته بخصوصية انفرد بها.

البرنامج القرآني للفريق الأوّل

١ ـ عدم التعلّق بالدنيا وزينتها، وعند التخلّف عليهنّ الانفصال عن رسول الله ﷺ بتطليقهنّ.

٢ ـ الانقطاع إلى الله والإخلاص لذاته المقدّسة، والطاعة

والخضوع المطلق لرسول الله صلى الله عليه وآله، والأجر الجزيل المضاعف الذي ينتظرهنّ عند تنفيذ هذا البند.

٣ ـ اجتناب الفواحش وقبائح الأعمال والمنكرات الفاضحة.

٤ ـ عدم الاختلاط بالرجال واجتناب الغرباء والحيطة، حتّى في أسلوب الكلام ولحن الحديث بما يحصنهنّ عن أغراض الذين في قلوبهم مرض.

٥ ـ القول المتّزن، واجتناب القول المشين والحديث الجارح.

٦ ـ عدم التبرّج وإظهار الزينة والجلوس في أماكن مشرّفة، أو تطلّ على الطريق بحيث يكنّ على مرأىً من الأجانب.

٧ ـ الاستقرار في البيوت، وعدم الخروج والتجوال في الطرق والتفسّح المريب، ثمّ اجتناب الدخول في القضايا السياسية والشؤون العامّة للمسلمين.

كانت هذه نماذج من الاستنتاجات الحاصلة على ضوء الآيات المبيّنة لبرنامج نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وما عليهنّ التقيّد به وفق تلك الآيات، ونرى مدى الحرص والتأكيد القرآني على تنفيذ هذا البرنامج وإعمال هذه الخطّة يظهر متجلّياً واضحاً بتأمّل الآية الأخيرة: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾[1] وهي تذكرهنّ بالتعاليم والإرشادات التي أمرهنّ الرسول صلى الله عليه وآله بها وما تلاه عليهنّ من آيات الله.

---

(١) الأحزاب: ٣٤.

امتياز الفريق الثاني

الفريق الثاني المنشعب من الأسرة الكبيرة هو «أهل البيت عليهم السلام» وقد مرّ أن أيّاً من الآيات لم يشر إلى نساء النبيّ صلى الله عليه وآله -أي الفريق الأوّل- على أنّهنّ من ﴿أهل البيت﴾ إذ نسب بيوتهنّ إلى أنفسهنّ، وركز القرآن الكريم هذا المعنى في آيتين من قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[١] ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[٢]. ولعلّ الأمر كان على هذه الكيفية حتّى يفقدن في المستقبل أيّ انتساب أو إضافة لرسول الله صلى الله عليه وآله أو ارتباط به، سوى كونهنّ أزواجه. وبملاحظة البرنامج الذي أُلزمن بتنفيذه والعمل به، عليهنّ حفظ بيوتهنّ وفق البنود والشروط التي نصّ عليها البرنامج (اللائحة التنظيمية لهذه البيوت) بالبقاء فيها، وتجنّب الخوض في القضايا الإسلامية العامّة، إذ لا صفة ولا دور أو سمة رسمية تسمح لهنّ بالدخول في هكذا قضايا، وفي حال التخلّف عن هذا البرنامج وعدم مراعاة شروطه، فإنّ الانتساب والإضافة لرسول الله صلى الله عليه وآله ستسقط عنهنّ أيضاً.

من هنا كان جواب زيد بن صوحان لعائشة في الرسالة التي ذكرناها[٣] واعتباره لها أُمّاً للمؤمنين ما دامت في بيتها ملتزمةً بالعمل بـ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وكان كتاب أُمّ سلمة لعائشة المتضمّن للمعنى نفسه من توقّف تحلّيها بلقب أُمّ المؤمنين على التزامها البيت، وعدم الخوض في القضايا السياسية العامّة وإثارة الفتن والحروب، وخلع

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الأحزاب: ٣٤.

(٣) في ص ٢٨ـ٢٩.

اللقب عنها عند تمرّدها ونكوصها عن (اللائحة التنظيمية الداخلية لبيوت نساء النبيّ صلى الله عليه وآله)[١].

أمّا الفريق الثاني «أهل البيت» عليهم السلام فهو موكّل بمهمّة ودور ناهض بمسؤولية ووظيفة حفظ الإسلام وقيادة المسلمين وزعامتهم، من هنا خلّيت النسوة (الفريق الأوّل) ومشيئتهنّ في عدم اجتراح الآثام وارتكاب الفواحش، والالتزام بالبرنامج القرآني المرسوم لهنّ، وبالتالي طهارتهنّ ونزاهتهنّ، أمّا ﴿أهل البيت﴾ صلوات الله عليهم فقد نزّههم الله وطهّرهم تطهيراً، وأراد بأمره أن لا يعتري نفوسهم السامية كدر الذنب بل حتّى التفكير بالذنب، أو ينال أرواحهم العالية لوث المعاصي، فيبقون معادن خالصة مصفّاة يحقّ لها ويليق بها أن تتولّى دور الهداية وتخلف رسولَ الله صلى الله عليه وآله فيه[٢].

أمّا الآيات التي تحدّثت عن نساء النبيّ صلى الله عليه وآله فلا يستشم منها ريح التميّز والاصطفاء، ولكنّك تجد تلك النفحة الإلهية في قمّة تجلّيها في ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ وتجد كيف تسطع شمس الكمال وتتلألأ درر الفضيلة في صفوة محدّدة وثلّة مذكورة على وجه الحصر والتخصيص بـ«إنّما»، وبتقديم «عنكم» على أهل البيت عليهم السلام، وبفتح «أهل» فالله أراد لهؤلاء، لا للنساء ولا لغيرهنّ، بل لهؤلاء الخمسة البعد عن الأهواء والأمراض الروحية، أراد لهذه الطبقة المتميّزة وهذا النبع والجذر الطهارة والنزاهة والعصمة.

---

(١) راجع ص ٢٧.

(٢) يبقى بحث هنا حول فضل الأئمّة فيما أراده الله لهم تكويناً وما يُثار من شبهة الجبر، وسيأتي الكلام في ذلك.

ويلاحظ من وقوع هذه الآية بين تلك الآيات أنّ السلبية التي تعاملت بها العناية الربّانية مع زوجات النبي اقتُطعت واستُثني منها الفريق الثاني «أهل البيت»عليهم السلام، فإمكان صدور الذنب وارتكاب الفواحش ومعصية الرسول، والخروج من البيت والتدخّل المنهيّ عنه والخاطئ في قضايا المسلمين العامّة ممّا كانت تطفح به الآيات التي خاطبت زوجات النبي صلى الله عليه وآله، قد اختفت واستُعيض عنها بإفاضة روحية ملكوتية تنزّه وتبرئ الفريق الثاني «أهل البيت عليهم السلام» من كلّ ذنب ونقص.

فنساء النبيّ صلى الله عليه وآله لهنّ الخيار في اتّخاذ طريق السعادة أو الشقاء، أمّا أنشودة الرحمة الإلهية والعناية الربانية الخاصة وفيوضاتها القدسية فقد رتّلت ألحانها الغيبية في مسامع أهل البيت خاصة، وناجتهم أن لا يظنّن أحد أنّكم كنساء النبيّ صلى الله عليه وآله، أُرخي لهنّ عنان الشطح وأُلقي حبل الأهواء على غاربه، اللّهم إلّا لمن أرادت الفوز والنجاة فاعتصمت بسبيله. إنّه ظنّ باطل وخيال زاهق. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...﴾.

وعلى هذا، فإنّ مفاد آية التطهير يختلف كلّياً عن مفاد بقيّة الآيات، فلا يمكن أن يتوجّه الخطاب فيها إلى زوجات النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين.

العلّة في ترتيب وتدوين الآية في هذا الموضع

مع أنّ آيات البرنامج القرآني لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله كانت تشير إلى عدم تمتّعهنّ بالخصوص بأيّ مقتض وأولوية، ولم تكن تحكي أيّ نوع من الاستحقاق والكفاءة لهنّ، ولم تمنحهنّ أيّ فضيلة أو مزيّة، مع أنّ

كلّ هذا نزل بخصوصهنّ، كان من الممكن أن يتوهّم البعض أنّ هـذا يشمل جميع أقرباء النبيّ ﷺ، وأنّهم جميعاً على هذه الشاكلة والنحو من الكفاءة والاستعداد والمنزلة والمقام. ولم يكن من سبيل لرفع هذا التوهّم ودفع هذا الاحتمال إلّا بأن تُقحم جملة معترضة في وسط هذه الآيات على نحو الاستطراد، لتبدو كأنّها عبارة مقتطعة وضعت بين قوسين لئلّا يبقى أيّ هامش للاحتمال، وهذا من شواهد البلاغة القرآنية التي تظهر في قدرته على نقل خطابه وتغيير مخاطبه بشكل مفاجئ وسريع، ففي حين توجّه بالخطاب إلى فـئة مـعيّنة (نسـاء النـبيّ ﷺ) بـالوعد والوعـيد والتحذير من السقوط في المعصية والهوىٰ، ينتقل بتمام التأكـيد وغـاية الإتقان ليخاطب فئة أُخرى «أهل البيت» عليهم السلام، وكأنّه يقول: كلّا، ليس الحال كذلك معكم أنتم، ليست كلّ الأسرة من أصل واحـد، وليست نفوسهم من نسيج واحـد، لا ليس كـذلك، إنّمـا «أهـل البـيت» عليهم السلام مستثنون، فقد طهّرهم الله من الدنس وعصمهم من الزلل.

حقائق كشفها البحث

١ ـ انتظام الآيات، أي وجود ترابط بين آية التطهير وآيات نساء النبيّ ﷺ.

٢ ـ السرّ في وقوع آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ في آخر الآيات وأنّ آية ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ هـي بمـثابة مـلحق بـالبنود التي سجلتها الآيات السابقة لها.

٣ ـ دلالة آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ على انصباب العـناية الإلهـية الخاصة، وتعلّق الرعاية الربانية على تنزيه وطهارة وعـلوّ شأن ثـلّة

خاصّة من أقرباء النبيّ ﷺ أُطلق عليهم «أهل البيت» عليهم السلام.

٤ ـ وقوع الآية في نهاية تلك الآيات كان لدفع وهم قد يطرحه بعض من في قلوبهم مرض.

إشكال على الاستطراد:

إذا افترضنا أنّ آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾ مثلها مثل بقيّة الآيات تخاطب جميع عائلة النبيّ ﷺ وأسرته من نساء وذريّة وصهر، فلن يعكر سياق الكلام ووحدة الموضوع شيء وستجده منساباً على رؤية واحدة، ولكن إذا قلنا: بأنّ المعنيين في آية التطهير هم فئة خاصّة من أسرة النبيّ ﷺ استُثنيت من عموم عائلته، فهذا ممّا يلزمه الاستطراد (ويعني تخلّل عبارة خارجة عن كلام يحكي موضوعاً واحداً)[1] وحمل

(١) الاستطراد: هو أن يأخذ المتكلّم في معنى، وقبل أن يتمّه يأخذ في معنى آخر. ويسمّيه ابن المعتزّ «حُسن الخروج»، وذلك كقول حسّان بن ثابت(١):

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجا الحارث بن هشام
ترك الأحبّة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّة ولجام

فقبل أن يأتي بجواب الشرط استطرد، فأخذ يحكي ما فعله الحارث بن هشام، وبعبارة أخرى: خرج من الغزل إلى هجاء الحارث بن هشام.

والاستطراد أيضاً نوع من تجميل الكلام يتلخّص في إدخال مادّة لا تتصل بالموضوع إلّا اتّصالاً غير مباشر، وقد تكون وظيفتها الاستعطاف أو إثارة الغضب أو تفنيد حجج المعارضة. والاستطراد قد ينطوي على الاتهام أو النقد أو السخرية أو المدح أو إثارة الكبرياء أو أي موضوع آخر يستطيع أن يزيد اهتمام المستمعين أو يخفّف من قلقهم(٢).

←

عبارة ما على الاستطراد هو خلاف الظاهر، إذ الظاهر أن يبدأ المتكلّم بالحديث حتّى ينهيه بانتهاء موضوعه دون أن يتخلّله كلام خارج الموضوع الذي شرع فيه، وإلّا لخدش ذلك بفصاحته وبلاغته. من هنا (يزعم أرباب الإشكال) فإنّ عدم اعتبار آية التطهير مخاطبة لعامّة أسرة النبيّ صلى الله عليه وآله يجعلها عبارة وجملة غريبة تخلّ بوحدة الموضوع وتناسق النصّ وانسجامه، ولما كان القرآن الكريم في غاية البلاغة وقمّة الفصاحة فإنّه لا يمكن الجزم بأنّ آية التطهير لا تشمل جميع أفراد أُسرة النبيّ صلى الله عليه وآله لما يشكله فرض الاستطراد من مسّ وخدش بالكمال الأدبي والتمام البلاغي للنص، وهو مبنى إشكال غالبية محقّقي العامّة وعلمائهم في دلالة الآية وزعمهم شمولها النساء.

ردّ الإشكال:

فضلاً عمّا ذكرناه سابقاً وأثبته التحقيق من أنّ الخطاب في هذه الآية خاصّ، ولا يصحّ ولا يعقل إلّا أن يكون موجّهاً لنفر معدود معيّن، وما اعتبرناه من كونها استطراداً جاء في محلّه ومناسبته لرفع الاحتمال ودفع الوهم، نقول: إنّ دخول الجملة الاعتراضية في الكلام لا يخدش ببلاغته، وإذا ما تسالمنا وأذعنا أنّ القرآن الكريم غاية في البلاغة والفصاحة، فها هي بعض الشواهد التي تُقرّ هذا الاستعمال الأدبي وتحسّنه ولا تراه مخلّاً وخادشاً بتمام البلاغة والفصاحة:

← (١) ديوان حسّان بن ثابت: ٢١٥.

(٢) معجم المصطلحات في اللغة والأدب/ مجدي وهبة ـ كامل المهندس ص١٨.

١ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ* يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[1] في هذا النصّ القرآني نجد أنّ الحديث يبدأ حول مكر النساء وينتهي بذكر ذنب زليخا وخطيئتها، وقد تخلّلته جملة اعتراضية هي ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾.

٢ ـ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[2] ونلاحظ هنا أنّ بداية الكلام ونهايته لبلقيس، وبين تسلسل حديثها جاء كلام الله على نحو الجملة المعترضة ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

٣ ـ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] بدأ الكلام في هذه الآيات الشريفة ببيان نفسيّة اليهود وروحيتهم وعنادهم وقسوتهم،

---

(١) يوسف: ٢٨ـ٢٩.

(٢) النمل: ٣٤ـ٣٥.

(٣) البقرة: ٧٣ـ٧٥.

وختم ببيان زيفهم وحالة الملامة والتوبيخ المتبادلة بين أفرادهم، ولكن بين مثل هذه البداية والخاتمة نرى عبارة (كأنّها بين قوسين) جاءت كتذكرة للمسلمين: أن لا تأملوا أبداً في إيمان هؤلاء واقطعوا الرجاء في ذلك. إذن فالقرآن الذي ينصب جزء من إعجازه على البُعد البلاغي فيه عمد إلى الاستطراد في كثير من المواضع بأن بدأ حديثاً وختمه في موضوع واحد في حين تخلّلته عبارات وجمل خارج الموضع وغريبة عنه، ويكفينا ذكر هذه الشواهد الثلاثة، ولننتقل للبحث في علل الاستطراد وأسبابه.

حول الاستطراد:

يُعدّ الاستطراد من الأساليب البلاغية المتداولة في الكتابة، المعمول بها في الخطابة والتحدّث، وهو إدراج عبارة أو إقحام جملة في موضوع غريب عنها أو لا يندمج فيها كلّ الاندماج، ويهدف إلى التأكيد على تلك الجملة وإلفات النظر إليها، بحيث ما كان لها هذا البريق والوقع على القارئ أو المستمع لو لم تكن نافرة عن سياق غريب عنها، وهكذا قد يُراد بالاستطراد تأكيد المعنى فيؤتى بالجملة المقتطعة في وسط الحديث الغريب عنها ترسيخاً له وإمعاناً في بيانه. وممّا لا شكّ فيه أنّ آية التطهير الشريفة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ هي من هذا القبيل، الذي يلجأ إليه المتحدِّث بهدف إلفات النظر إليه وتركيزه في الأذهان وبقائه في الذاكرة لأهمّيته وخصوصيّته. ففي سياق يلفّه الوعد والوعيد لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، ويحفّه إثارة إمكان انحرافهنّ وسقوطهنّ في المعصية والتمرّد على الرسول صلى الله عليه وآله، كانت ذهنية المستمع ستخلط ـ على الأكثر ـ وتحتمل

الفرض نفسه في «أهل البيت»عليهم السلام أيضاً، هنا كان لابدّ من خطاب يأخذ وقع الهاتف والنداء الخالد الذي يمسح جميع الاحتمالات الباطلة ويقلب المعاني المحتملة. وما كان لهذا الخطاب إلّا أن يكون على نحو الاستطراد الذي يتخلّل موقع الشبهة نفسه ويقحمه في عقر داره! فيعلم الجميع أنّ هذه الثلّة مطهّرة منزّهة لا ينتابها شكّ ولا يعتريها باطل، وأنّهم مقولة أُخرى من سنخية ونسيج آخر لا علاقة له بالنساء ولا ارتباط لهنّ به، فلا ينبغي القياس ولا تصحّ المقارنة والربط، ليعلم الجميع أن «**لا يُقاس بآل محمّد**صلى الله عليه وآله **من هذه الأُمّة أحد**»[1] وهكذا الأمر في آيات سورة البقرة التي تناولت وضع اليهود ونفسيّاتهم، إذ كان القرآن في معرض بيان سُبل فلاح المسلمين وسعادتهم، وكيف أنّ اليهود هم أكبر مانع في طريق تحقّق ذلك، وأنّ الرجاء في هدايتهم إلى الدين رجاء عقيم والأمل في إذعانهم للحقّ أمل خائب، من هنا جاءت عبارة في وسط العبارات التي تشرح أحوال اليهود، وُجّه فيها الخطاب للمسلمين مباشرة تحثّهم على هذا المعنى، وهو أفضل أسلوب وأتمّ صيغة لإلفات النظر إلى ذلك المعنى وترسيخه في نفوسهم.

وبالجملة إنّ إشكال كون «الاستطراد» مخلّاً بالبلاغة خادشاً بالفصاحة ـ لتكون النتيجة بطلانه ودخول عموم عائلة النبيّصلى الله عليه وآله أي زوجاته أيضاً في مدلول الآية بدليل وحدة السياق وعدم الإخلال به لقطع وغيره ـ مردود، بل إنّه من الأساليب البلاغية المطلوبة

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥، الخطبة الثانية.

والمستحسنة لما ثبت من استعمالاته القرآنية في عدّة موارد أُخرى[١].

هكذا يثبت أنّ الآيات محلّ البحث قسمت عائلة الرسول ﷺ إلى قسمين: زوجاته وذريّته، وثبت أنّ المقصود من «أهل البيت» عليهم السلام هم الخمسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم أجمعين.

■ ▣ ■

(١) عدّ صاحب جواهر البلاغة الاستطراد من المحسنات المعنوية، وقال: الاستطراد هو أن يخرج المتكلّم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبة بينهما، ثمّ يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأوّل، كقول السموْل:

وإنّا لقوم لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

يقرّب حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

فسياق القصيدة للفخر بقومه، وانتقل منه إلى هجو قبيلتي عامر وسلول، ثمّ عاد إلى مقامه الأوّل وهو الفخر بقومه. جواهر البلاغة للسيّد أحمد الهاشمي: ٣٥٨.

النكتة الثالثة:

المقصود من الإرادة

في قوله تعالى: ﴿إنّما يريد الله ...﴾

في هذا الفصل سنتناول دراسة معنى «الإرادة» والمقصود منها في الآية الشريفة، وسنعرض في البداية لتوضيح معنى الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية، ثمّ نبحث هل جاء في القرآن الكريم نوعا الإرادة هذان أم لا؟

الإرادة التكوينية

الإرادة التكوينية ـ كما هو ظاهر من اسمها ـ عبارة عن حقيقة الإرادة والحمل الشائع لها[1]، بمعنى أنّ ذات الباري سبحانه وتعالى أو الفاعل المريد من البشر له إرادة واقعية على إنجاز عمل ما.

فالشخص له إرادة لتناول الطعام، ومنشأ هذه الإرادة هو تصوّر الشيء المراد والتصديق بالفائدة والنتيجة، ووجود الميل والرغبة ثمّ النيّة

---

(١) الشائع الصناعي: أي المتعارف في المحاورات والعلوم والصناعات، مثل «الإنسان كاتب» ويكون عند اتحاد الموضوع والمحمول في المصداق وتغايرهما من جهة المفهوم، ويقابله الحمل الذاتي الأوّلي: فالاتحاد بين الموضوع والمحمول في المفهوم، لكن المغايرة اعتبارية كالإجمال والتفصيل ونحوه، مثل «الإنسان حيوان ناطق»...

والعزم، وبعد ذلك الاندفاع وإرادة الشيء. فهو عندما تخطر في ذهنه فكرة تناول الطعام يستحضر فائدة هذا العمل، من شبع أو لذّة أو غرض صحيّ وطبّي، ثمّ يصدّق على صحّة ذلك أي يتحقّق من سلامة الفكرة، وتأتي النيّة والعزم على إثر هذه الرغبة النفسية، وحينما تبلغ الرغبة قمّتها ويصل الشوق[1] مداه فهو «يريد» الأكل. فـ«الإرادة» أمر يظهر بعد المقدّمات الخمسة المذكورة التي بعضها جزء من المبادئ التصوّرية، والبعض الآخر هو جزء الغايات.

وحقيقة هذه الإرادة التكوينية أمر ممكن على الباري تعالى[2]، ومن صفات تلك الذات المقدّسة. ونقول: إنّ الله مريد، ولكن لا على تلك المقدّمات التي ابتنت عليها إرادة البشر، إذ يلزم ترتّب الإرادة الإلهية على تلك المقدّمات إنفعال ذاته المقدّسة وتأثّرها، وهو ممّا مردّه إلى النقص تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، ولكن حقيقة الإرادة التي هي عين العلم وعين الذات ـ على حدّ تعبير المحقّقين ـ فهي من صفات ذاته المقدّسة.

---

(١) وقد يتعلّق الشوق بنتيجة الفعل لا به، كما في تناول الدواء المرّ جدّاً أو في تحمّل عملية جراحية خطرة.

(٢) ذكر العلّامة الطباطبائي في نهاية الحكمة ص ٣٦١: «وقد تحقّق أنّ كلّ كمال وجودي في الوجود فإنّه موجود للواجب تعالى في حدّ ذاته، فهو (تعالى) عين القدرة الواجبة، لكن لا سبيل لتطرّق الشوق عليه، لكونه كيفية نفسانية تلازم الفقد، والفقد يلازم النقص، وهو تعالى منزّه عن كلّ نقص وعدم. (ثمّ يقول): وكذلك الإرادة التي هي كيفية نفسانية غير العلم والشوق، فإنّها ماهية ممكنة والواجب تعالى منزّه عن الماهية والإمكان».

وفي الإرادة التكوينية تتعلّق الإرادة بفعل المريد والطالب نفسه لا الغير، فالله يريد خلق العالم، أو إحداث زلزال، أو إفاضة الوجود على إنسان. والشخص يريد أن يأكل، أو يمشي، أو يتعلّم أو... ولكن هناك تفاوت بين إرادة الله وإرادة الإنسان، ففي الإرادة الأزليّة للبارئ تعالى لا يتخلّف المُراد عن الإرادة، ولابدّ من تحقّق كلّ ما أراده المريد، أمّا في الإنسان فالإرادة والمراد قابلة للتفكيك، وقد يتخلّف المراد عن الإرادة ولا يتحقّق لعلّة ما.

الإرادة التشريعية

الإرادة التشريعيّة هي إرادة شخص إنجاز عمل ما وفقاً لرضاه واختياره، كأن يريد الأب من ابنه أن يدرس، وحتّى يبلغ هذا الأمر مرحلة التطبيق والتنفيذ، فإنّه يطوي مقدّمات، فالأب تحكمه رغبة وشوق مؤكّد لأن ينشغل ابنه بالدرس، أو يعيش هاجس المحافظة على ابنه من التسكع واللهو وبالتالي الفساد، وصنع مستقلّ جيّد له، هذه الرغبة تدفعه لإصدار أمر الانشغال بالدراسة والنهي عن التسكع واللهو المنجرّ إلى الفساد.

هذه الرغبة الملحّة وهذا الشوق المؤكَّد الذي يستتبعه الأمر والنهي هو الإرادة التشريعية، وفي ضوء الدراسة التي تمّت حول الإرادة التكوينية للباري تعالى نقول: إنّ الإرادة التشريعية لله سبحانه هي الأوامر والنواهي الشرعية.

الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية في القرآن الكريم

نلمح في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تضمّنت الإرادتين، نستعرض بعضها باختصار، ونذكر أوّلاً بعض التي تشير إلى الإرادة التكوينية:

١ ـ ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[١]. والإرادة في لفظة «يريد» في الآية الكريمة من قبيل الإرادة التكوينية، والمعنى أنّ إرادة الباري غير قابلة للتخلّف، وأنّ كلّ ما يريده الله سبحانه وتعالى متحقّق لا محالة.

٢ ـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢]. وهذه الآية في غاية الوضوح على الإرادة التكوينية، وكيف أنّ الشيء يرتدي حلّة الوجود، والمراد يكتسب نور التحقّق بمجرّد توجّه العناية والرغبة الربّانية إليه.

٣ ـ ﴿... إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[٣]، ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[٤]. وجملة «فعّال لما يريد» من مصاديق الإشارة إلى الإرادة الربانية التكوينية، إذ بمجرّد انبعاثها يتحقّق المراد، وما يريده الباري فهو ما سيقع ويتحقّق.

كانت هذه نماذج من آيات مستفيضة تشير إلى وجود إرادة الله سبحانه، وأنّ هذه الإرادة مُنجّزة ومُتحقّقة قطعاً.

---

(١) الحج: ١٤.

(٢) يس: ٨٢.

(٣) هود: ١٠٧.

(٤) البروج: ١٥ـ١٦.

ومن الآيات التي تتضمّن وجود إرادة تكوينية للإنسان وإمكان تخلّف المراد عن الإرادة في هذه الحالة، نذكر جملة منها:

١ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

٢ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[2].

وفي هذه الآيات يتّضح معنى أنّ الإرادة التكوينية للبشر ورغبتهم لا تتحقّق دائماً، وبطبيعة الحال فهي ليست نافذة بالضرورة، ويستفاد كذلك من هذه الآيات أنّ هذه الإرادة البشرية محكومة ومقهورة بالإرادة الأزلية للباري تعالى، وعندما تصطدم وتتعارض الإرادتان، فإنّ ما يريده الله هو ما سيجري ويتحقّق لا ما يريده الناس.

أمّا الآيات التي تشير إلى الإرادة التشريعية، فمنها:

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ

---

(١) الصف: ٨.

(٢) المائدة: ٣٧.

وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١]. من المسلّم أنّ الإرادة في هذه الآية الشريفة ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ إرادة تشريعية، أي أنّ الهدف الإلهي من جعل هذه الأحكام هو تطهير الناس، إذن فالإرادة التشريعية هنا هي وضع أحكام الطهارة من غسل ووضوء وتيمّم، والهدف هو طهارة الناس من الحدث والخبث، وبديهي أنّ البعض سيمتثل لهذه الأحكام ويعمل بها، بينما سيعرض عنها آخرون ولا ينفذونها، أمّا لو كانت إرادة إلهية على نحو التكوين لما أمكن لأحد أن يتخلّف عن تطهير نفسه.

وقد ذكرنا في معنى الإرادة التشريعية أنّها تتعلّق بفعل الغير ـ على ضوء إرادته واختياره ـ وفي هذه الآية أُضيفت إرادة الله سبحانه وتعالى إلى أفعال الناس، وغايتها أن يقوم المؤمنون وفق اختيارهم بالوضوء والغسل والتيمّم، وكون الإرادة هنا تعلّقت بفعل الإنسان، إذن لا ترديد أنّ الإرادة في هذه الآية ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ إرادة تشريعية لا تكوينية.

٢ ـ ﴿... فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾[٢]. وممّا سبق بيانه في الآية السابقة يتّضح أنّ «الإرادة» في هذه الآية من قبيل سابقتها تشريعية أيضاً، وأنّها بصدد وضع قانون الصيام وضوابطه المختلفة المتعلّقة بالسفر والحضر أو الصحّة والمرض، بما يخفّف على المضطرّين، ولا يوقعهم في العُسر والمشقّة، ويجعل الصيام

(١) المائدة: ٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

مفروضاً على الجميع دون مراعاة للحالات الخاصّة، إذن الإرادة في الآية تتعلّق بتشريع الأحكام والفروض، وليست هذه إلّا الإرادة التشريعيّة بعينها.

الإرادة في آية التطهير

بعد بيان نوعيّ الإرادة ، لننظر في آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ من أيّ القسمين هي؟

ذهب بعض مفسّري العامّة وكبار علمائهم إلى أنّ الإرادة في آية التطهير هي من قبيل الإرادة التشريعية، ويرجع هذا الرأي إلى ما افترضوه في أنّ مخاطب الآية هو زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، أو ما هو أعمّ من الزوجات وأهل البيت، وذلك لوقوعها في سياق الآيات التي كانت تحثّ الزوجات وترغبهنّ بأعمال معيّنة وتحدّد لهنّ تكاليفهنّ تجاه الرسول صلى الله عليه وآله . فافترضوا أنّ التطهير المشار إليه في الآية هو محصلة امتثالهنّ وقيامهنّ بما أُمرن به، وعلى هذا يكون الغرض من هذا التشريع (في الآية) تطهير زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وتنزيههنّ عن الذنب وعصيان الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّه تطهير تشريعي يعقّب العمل الذي يقوم به المكلّف وفق اختياره ورغبته، لا تكويني سيتحقّق بإرادة الباري عزّوجلّ وبصرف النظر عن فعل ورغبة المكلّف.

ماذا يقول سيّد قطب في ظلاله ؟

يقول في ذيل آية التطهير: «**في العبارة تلطّف ببيان علّة التكليف وغايته، تلطّف يشير بأنّ الله سبحانه ـ يشعرهم بأنّه بذاته العليّة ـ**

يتولّى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم؛ وهي رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت، وحين نتصوّر من هو القائل ـ سبحانه وتعالى ـ ربّ هذا الكون، الذي قال للكون: كن فكان. الله ذو الجلال والإكرام، المهيمن العزيز الجبّار المتكبِّر. وأخيراً فإنّه يجعل تلك الأوامر والتوجيهات وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت، فالتطهير من التطهّر، وإذهاب الرجس يتمّ بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم ويحقّقونها في واقع الحياة العملي»[1].

على هذا المبنى الذي يفرضه سيّد قطب في آية التطهير فلا سبيل أمامه إلّا اعتبار الإرادة هنا تشريعية، إذ هو يفرض العلّة في التكليف إزالة الرجس والتحلّي بالطهارة، وعليه فإنّ الأوامر والنواهي التي جاءت بها الآيات السابقة للنساء كانت لتحقّق هذه الحالة، الحالة التي لن توجد وتتحقّق إلّا من خلال العمل بتلك التكاليف، ومن ثمّ ليست إرادة الباري سوى تشريع الأحكام لهنّ، وهذا التشريع جاء لمجرّد إزالة الرجس وإيجاد الطهارة. ومع أنّ سيّد قطب يصرّح في بعض عباراته بأنّ الله سبحانه وتعالى باشر بذاته المقدّسة تطهير أهل البيت وتولّى إذهاب الرجس عنهم، (الله الذي يخلع الوجود على مخاطبيه بمجرّد «كن» فيكونون، وهذه العبارات لا تليق ولا تناسب إلّا شأن الإرادة التكوينية، فالخطاب بـ «كن» من أبرز مصاديق الحالة التكوينية) لكن الرجل في بداية حديثه ونهايته جعل آية التطهير علّة وغاية لفرض واجبات وإلقاء تكاليف إلٰهية على نساء النبيّ ﷺ، وأنّ الامتثال لهذه

(١) في ظلال القرآن / سيّد قطب ٥: ٢٨٦٢.

التكاليف هو السبيل الوحيد للخلاص من الأرجاس والتحلّي بالطهارة، وهذا التركيب لا ينطبق إلّا مع الإرادة التشريعية التي تبيّن لنا أنّها متعلّقة بفعل المكلّف. على هذا يمكننا القول: إنّ سيّد قطب يذهب إلى أنّ الإرادة الإلهية في آية التطهير تشريعية لكنّه لم يصرّح بهذا المعنى، كما أنّه جاء ببعض خصائص ومميّزات الإرادة التكوينية وطبّقها على الآية.

هل الإرادة في آية التطهير تشريعيّة ؟

بعدما اتّضح أنّ كلتا الإرادتين ـ التكوينية والتشريعية ـ مذكورتان في القرآن الكريم، نقول: إنّ الإرادة في آية التطهير تكوينية بعدّة أدلّة:

١ ـ ينبغي في تحديد معنى «الإرادة» وغيرها من الكلمات ملاحظة الظهور النوعي لها، والمعنى الذي يشكّل الغلبة ويحقّق لنفسه حالة الأصل، بحيث يفتقر صرفه لمعنى آخر إلى القرينة، وعند خلوّ الذكر والإطلاق عن القرائن تُحمل الكلمة على معناها الظاهر. وممّا لا شكّ فيه أنّ ظهور «الإرادة» وشيوع استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم هو في المعنى التكويني، بحيث يمكننا القول: إنّ المعنى المقابل، أي التشريعي (أي نفس التكاليف الشرعية من أوامر ونواه) لم يكن في القرآن إلّا نزراً يسيراً، ووفق ما تحرّيناه فإنّه من ١٣٨ مورداً ذكرت فيه «الإرادة» فقد استعملت في ١٣٥ مورداً في المعنى التكويني (ونقصد ـ بطبيعة الحال ـ الإلهي منه والإنساني)، واستعملت في ٣ موارد فقط

في المعنى التشريعي[1].

من هنا نخلص إلى أنّه عند الشكّ في إحدى معنيي اللفظ، فإنّه يُحمل على ظاهره ما لم تكن هناك قرينة صارفة، وهكذا عند الشكّ في مدلول «الإرادة» في آية التطهير، وهل المراد منها التكوينية أم التشريعية، فإنّها تُحمل على التكوينية لأنّه مقتضى الأصل، لما ثبت من غلبة استعماله في هذا المعنى وبالتالي ظهوره فيه، اللهمّ إلّا أن يُؤتى بقرينة تصرفه عن هذا الظاهر والأصل، ولا قرينة.

٢ ـ وهناك دليل آخر أكثر وضوحاً يحدّد معنى «الإرادة» في الآية الشريفة، وهو مبتن على الأساس الذي ذكرناه في التفريق بين نوعي الإرادة، والفصل المميّز لقسمي الإرادة ـ التكوينية والتشريعية ـ أي تعلّق الفعل في الإرادة التكوينية بالمريد نفسه لا بغيره، على عكس التشريعية التي تتعلّق فيها الإرادة بفعل الغير. وفي آية التطهير فإنّ المريد هو الله جلّ وعلا، والمُراد هو إذهاب الرجس والتطهير، والإذهاب والتطهير في الآية متعلّقان بالله، وهما من فعله وعمله، إذ يرجع الضمير في «ليُذهب» وفي «يطهِّركم» إلى الله سبحانه، وهو فاعل هذين الفعلين، وبناءً على هذا الأساس لابدّ أن يقال: عند تعلّق الإرادة على فعل المريد فهي تكوينية، والمريد هنا هو الله جلّ جلاله، فالإرادة إرادة إلهيّة تكوينية وليست تشريعية، إذ تتعلّق التشريعية بفعل الغير لا بفعل المريد.

---

(١) أي بنسبة ٢ ٪ فقط، وقد قمت بإحصاء الموارد التي ذكرت فيها «الإرادة» ومشتقّاتها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن فوجدتها ١٣٨ كما ذكر المؤلف.

تساؤل

يُثار هنا تساؤل حول ما قلناه في آية الوضوء والغسل والتيمّم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[١] من أنّ «الإرادة» فيها إرادة تشريعية، مع أنّها على نفس شاكلة «الإرادة» التي جاءت في آية التطهير، وقلنا: بأنّها إرادة تكوينية. فكما «الإذهاب والتطهير» هنا ـ في آية التطهير ـ من فعل الله (المريد) فهي هناك كذلك من فعل الله سبحانه، وفاعل «ليطهركم» ضمير يعود للباري تعالى[٢].

ردّ وتوضيح

المسلّم في آية الوضوء والغسل والتيمّم أنّ الله سبحانه وتعالى في مقام تشريع ووضع قوانين الطهارات الثلاث واشتراطها في الصلاة. ويقتضي التناسب في الوضع والتقنين أنّ المقصود من التطهير هو رفع وإزالة القذارات العالقة أو الخارجة من جسم الإنسان، وما يتبعها من بلوغ الطهارة الواقعية والمعنوية، وبديهيّ أنّ إزالة هذه القذارات ورفع تلك النجاسات هو فعل الإنسان المكلّف لا فعل الله تعالى!

ومن قرينة صدر الآية يتّضح أنّ غرض الباري تعالى هو سنّ ووضع «قانون الطهارة»، حتّى يتمكّن الناس ويعرفوا كيفيّة تطهير أجسامهم وإزالة القذارات عن أبدانهم، وبهذا نعلم أنّ «إرادته» تعالى

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) ممّن أثار هذه الشبهة الآلوسي صاحب تفسير روح المعاني، وزاد وأمعن حين قال: بل لعلّ هذا أفيد (للعصمة) لما فيه من قوله ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم﴾ فإنّ وقوع هذا الإتمام لا يتصوّر بدون الحفظ عن المعاصي! (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٢: ١٨).

ليست سوى تشريع هذا القانون، إذن الإرادة هنا تشريعية.

٣ ـ وردت كلمة «الإرادة» واستُعملت في الآيات التي خاطبت زوجات النبيّ ﷺ في موضعين آخرين أيضاً: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1]، ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[2]، والمسلّم أنّ الإرادة في هذين الموضعين تكوينيّة (بشرية)، وهذه قرينة أُخرى خاصّة تؤكّد مسألة ظهور المعنى في التكوينية، وكونه الأصل في آية التطهير التي تلي هذه الآيات، فالإرادة هي من النوع نفسه في جميع هذه الآيات (تكوينية) وتدور حول هذا المحور، بفارق أنّ المريد في الآيتين السابقتين هو نساء النبيّ ﷺ، وفي آية التطهير هو الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ من المسلّم لدى الجميع (عند من قال: بأنّ الإرادة في آية التطهير تشريعيّة ومن قال: بأنّها تكوينيّة) أنّ هذه الآية الشريفة تشكّل امتيازاً وخصوصيّة وتُعتبر تشريفاً ونوعاً من التفوّق والفضل لأهل البيت عليهم السلام. فإذا قلنا: إنّ «الإرادة» في آية التطهير تشريعية فعلينا أن نحدّد موقع التشريع فيها، وبعبارة أُخرى: ما هي القوانين التي وضعها الشارع المقدّس في هذه الآية؟ هل تراها شيئاً آخر غير الحثّ على طاعة الرسول ﷺ والتوجّه للآخرة والاهتمام بها، والإعراض عن الدنيا وعدم ارتكاب الفواحش والمعاصي؟ وهل هذه التكاليف تشكّل برنامجاً لأهل البيت عليهم السلام ونساء النبيّ ﷺ خاصّة أم أنّها أحكام وتشريعات تشمل جميع المسلمين والمسلمات، فأين التكريم والتشريف

(١) الأحزاب: ٢٨.

(٢) الأحزاب: ٢٩.

إذن؟ وأين التفوّق والفضل؟! فمن يقول: بأنّ الإرادة هنا في هذه الآية تشريعية لابدّ له من مخالفة إجماع المفسّرين واتّفاق العلماء على أنّ في الآية خصوصيّة وفضيلة مّا لأهل البيت عليهم السلام! إذ إنّ حمل الإرادة على التشريعية يلغي أيّة مزيّة وخصوصيّة لأهل البيت عليهم السلام، إذ يعود شأنهم كشأن غيرهم من التكليف بالأحكام السابقة التي ثبت وجوبها على الجميع[1]. من هنا لا محيص ـ لمجاراة المفاد المتّفق عليه من وجود

---

(١) قد تكون في بعض التشريعات خصوصيّة وامتياز وما ينتزع منه الفضيلة والتفوّق للمكلّفين بها، من قبيل وجوب قيام الليل على النبيّ صلى الله عليه وآله وإباحة زواج أكثر من أربعة نساء له، وزيادة التكبيرات في صلاة الميّت على بعض الشهداء كحمزة بن عبد المطّلب عليه السلام، وحرمة الصدقة على ذريّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولكن الملاحظ في الآيات محلّ البحث أنّ التشريعات التي جاءت بها لا تشكّل أيّة مزيّة وفضيلة للمخاطبين بها، ومجرّد الخطاب لا يعني أكثر من شأن النزول، وهي سيرة القرآن في بيان أكثر الأحكام والتشريعات السماوية، فإذا ما شُرع على سبيل المثال وجوب التوجّه إلى القبلة في جميع الصلوات وحيثما كان الإنسان إثر حادثة معيّنة (روى جابر قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منّا: قد عرفنا القبلة هي هاهنا قبل الشمال وخطوا خطوطاً، فلمّا أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلمّا قفلنا من سفرنا سألنا النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك فسكت فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾(سورة البقرة ٢ : ١١٥ ـ مجمع البيان ١ : ٣٢٠، بحار الأنوار ٨٤: ٣١.)

فهل يعني أن لهؤلاء النفر فضيلة أو مزيّة اكتسبوها بكونهم سبباً لبيان الحكم وشأناً لنزول الآية؟ كلّا بطبيعة الحال.

نعم، قد يقال: إنّ مضاعفة الأجر عند الإحسان ومضاعفة العقاب عند الإساءة ممّا ورد في الآيات يمكن عدّه نوعاً من التميّز لنساء النبيّ، ولكن لا يخفى أنّ هذا التميّز خارج عن نطاق التشريع ولا يمس الوضع القانوني، وأنّه يتعلّق ببعد آخر هو نتيجة

←

خصوصيّة وفضيلة في الآية ـ من الإذعان بأنّ الإرادة في آية التطهير ليست تشريعية بل تكوينية.

٥ ـ ذكرنا آنفاً أنّ الآيات قسّمت عائلة النبيّ ﷺ إلى فريقين:

الأوّل: مجموعة زوجات النبيّ ﷺ، وقد فرض عليهنّ برنامج تربوي معيّن، وبيّنت الآيات أنّ العمل بهذا البرنامج هو السبيل لبقاء انتسابهنّ لرسول الله ﷺ وارتباطهنّ به، وإلّا فمصيرهنّ الطرد والانفصال عنه.

الثاني: هو أهل البيت عليهم السلام الذين تُعدّ العدّة لهم ليتبوّؤا زعامة المسلمين وقيادة خط الهدى والدين، وأنّ الله سبحانه هو الذي يتولّى هذا الإعداد وينهض باصطفائهم وهو يطهّرهم عن الرجس وينزّههم عن المعصية، وعلى هذا فإنّ آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ...﴾ جملة اعتراضية ـكما أسلفنا ـ جاءت في وسط آيات النساء، انصبّت رسالتها ودار محورها على تسجيل ظاهرة معنويّة وحقيقيّة هي إرادة إذهاب الرجس عن هذا الفريق وتنزيهه.

إذن فالإرادة هنا لا علاقة لها بأيّ نحو بالأحكام التي سبق تشريعها في سائر الآيات، ولا يمكن للآيات التي خاطبت زوجات النبيّ ﷺ أن تكون قرينة على الإرادة التشريعيّة في آية التطهير، بل هي باقية على معناها التكويني، وتُحمل على أصلها وظاهرها الذي كانت عليه.

← العمل، لا العمل (التكليف المتعلّق بالتشريع) نفسه ممّا لا يُعالج الثغرة والإشكال على القائلين بالإرادة التشريعية هنا.

نعم، قد يسأل سائل: كيف صنّفتم هذا التصنيف وعلى أيّ أساس جعلتم «أهل البيت» فريقاً خاصّاً منحصراً بالسادة الخمسة صلوات الله عليهم؟ ... وفضلاً عمّا سبق بيانه، فإنّ جواب هذا السؤال سيأتيك مفصّلاً.

حديث مع الآلوسي

مع أنّ شهاب الدين محمود الآلوسي ـ مفتي بغداد المتوفّى سنة ١٢٧٠ ـ ذهب إلى أنّ «الإرادة» في آية التطهير إرادة تكوينية، لكنّه في الوقت نفسه طرح إشكالاً على ذلك وتعاجز عن ردّه مكتفياً بالإثارة! إذ يقول:

«... وقد يُستدلّ على كون الإرادة هاهنا بالمعنى المذكور (التشريعية) لا المشهور (التكوينية)، الذي يتحقّق عنده الفعل بأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال حين أدخل عليّاً وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» فإنّه أيّ حاجة للدعاء لو كان ذلك مراداً بالإرادة بالمعنى المشهور (التكوينية)، وهل هو إلّا دعاء بحصول واجب الحصول؟»[1].

وحتّى لا نكون مثل الآلوسي الذي ترك سؤاله معلّقاً دون إجابة! نقول:

سبق أن أثبتنا أنّ سياق الحديث وتركيب الكلام يُظهر أنّ عبارة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن ٢٢: ١٨.

«اللّهم هؤلاء...» في دعاء الرسول ﷺ جاءت لتحديد وبيان من هم المقصودون من «**أهل البيت**» عليهم السلام، فهو ﷺ يخاطب ربّه ويحدّد في خطابه أنّ «هؤلاء هم أهل بيتي» حتّى يعرف الناس من هم أهل البيت، ومن هم الذين أراد الله تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم[1]؟ وإلّا فإنّ الإشكال (سؤال الآلوسي) نفسه، بل ما هو أكبر منه سيرد على الدعاء إذا ما افترضنا أنّ الإرادة الإلهية في الآية تشريعيّة وليست تكوينيّة! فما معنى أن يقول النبيّ ﷺ ويدعو (ويكون معنى دعائه على فرض الإرادة التشريعيّة): «**اللّهم اجعل أهل بيتي مشمولين بأمرك ونهيك، وأبعدهم عن الآثار السلبية للنواهي بتشريع النهي وفرضه عليهم!؟**» أوليست الآيات متوجّهة بالأصل بالخطاب والتكليف إليهم؟ حتّى يأتي النبيّ ﷺ ويتوجّه بالدعاء لله سبحانه أن: إلهي أشمل أهل البيت بهذه التكاليف! أليس هذا هو الفرض (على القول بالإرادة التشريعيّة)؟

حديث آخر مع الآلوسي

مع ما يُلاحظ على صاحب تفسير «روح المعاني» من مستوى

---

(١) هذا هو غرض النبيّ ﷺ من هذا الدعاء، وإلّا فنتيجته وثمرته من حيث التحقّق تحصيل حاصل (وقد أُوفيَ المطلب حقّه في مواضع أُخرى من البحث، فراجع الصفحات السابقة)، وقد يكون هناك وجه آخر لمثل هذه الأدعية (المضمونة النتيجة) هو الإقرار بالفقر والحاجة لاستمرار الفيض ومواصلته ودوام العطاء الإلهي، فالداعي يعلم أنّ الله خلع عليه الوجود وأفاض عليه الجوارح ووهبه النعم تكويناً، ولكنّه يسأل الله ويدعوه استمرارها ومواصلة الإنعام بها وعدم زوالها، وقد يُنزّل الدعاء في مثل هذه المواضع منزلة الشكر والحمد على النعمة.

علمي لا بأس به وما يُسجل له ـ عند مقارنته بعلماء العامة ـ من حظّ ونصيب في العلم والتحقيق، لكن يظهر أنّ التعصّب يعمي الإنسان ويشطط به في متاهات غريبة! فالرجل يذهب إلى أنّ «الإرادة» في الآية تكوينية، وأنّ عبارة «أهل البيت» عليهم السلام تعني وتشمل الخمسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم، وعندما يقف على مدلول الآية ومفادها، وأنّ الثمرة والنتيجة العلمية التي تخلّص منها هي عصمة عليّ وبنيه عليهم السلام وطهارتهم وفضلهم، فإنّ هذه الحقيقة الناصعة والآية الناطقة تهزّ الآلوسي وأضرابه بشدّة وتربكهم وتوقعهم في اضطراب! ومن هنا نجد كيف يورد التعصّب صاحبه المهالك، وكيف يقع الآلوسي هنا فيما يفقده توازنه ورصانته ويخرجه عن طوره! فيسعى سعي العاجز ويتعسف في توجيه الآية ليصرف هذه الفضيلة عن أهل البيت عليهم السلام ويخرجهم عن غطائها!

خلاصة محاولته، وموجز كلامه: «... لأنّ المعنى حسب ما ينساق إليه الذهن ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهي والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم؛ لأنّه عزّوجلّ يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم وفي ذلك غاية المصلحة لكم، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم، وهو على معنى الشرط، أي يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم أن انتهيتم وائتمرتم، ضرورة أنّ اسلوب الآية نحو اسلوب قول القائل لجماعة علم أنّهم إذا شربوا الماء أذهب عنهم عطشهم لا محالة، يريد الله سبحانه بالماء ليذهب عنكم العطش، فإنّه على معنىً يريد سبحانه بالماء إذهاب العطش عنكم إن شربتموه، فيكون المراد

إذهاب العطش بشرط شرب المخاطبين الماء لا الإذهاب مطلقاً. فمفاد التركيب في المثال تحقّق إذهاب العطش بعد شرب الماء، وفيما نحن فيه إذهاب الرجس والتطهير بعد الانتهاء والائتمار؛ لأنّ المراد الإذهاب المذكور بشرطهما، فهو متحقّق الوقوع بعد تحقق الشرط وتحقّقه غير معلوم، إذ هو أمر اختياري وليس متعلّق الإرادة»[١].

جواب موجز:

١ ـ إنّ الاعتراف بكون «الإرادة» من القسم التكويني، ثمّ تعليق ذلك على شرط الطاعة في الأوامر والنواهي هو تراجع وعدول عن هذا الإقرار والاعتراف، وبعبارة أُخرى: فإنّ فرض تلازم بين الإرادة التكوينية والطاعة هو بمثابة تحايل على القول بالإرادة التكوينية، ويُعدّ تقريراً وإمضاءً ضمنياً بأنّ الإرادة في الآية هي إرادة تشريعية، إذ إنّ المعنى ـ بلحاظ ذلك الشرط ـ يغدو: إنّ الله كلّفكم بأوامر ونواه وتعلّقت إرادته في تطهيركم على عملكم بتلك التكاليف تماماً، كما تتعلّق إرادة الله في سمو الإنسان وتكامله الروحي على أداء الصلاة، فـ«الصلاة معراج المؤمن»[٢]. إذن فالباري تعالى أراد «لأهل البيت»عليهم السلام الامتثال لأوامره ونواهيه حتّى يطهّرهم، كما أراد للإنسان أن يصلّي حتّى يعرج إليه، ولعمري هل تعني الإرادة التشريعيّة غير هذا؟! بناءً على ذلك فإنّ

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن ٢٢: ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٨٢: ٢٤٨ ح١ و ص ٣٠٣ ح٢.

لازم تلك الملازمة عدول الآلوسي عن القول بأنّ «الإرادة» في آية التطهير تكوينيّة.

٢ ـ تكرّر القول بأنّ آية التطهير جاءت بين الآيات على نحو الجملة الاعتراضية، ومعنى ذلك أنّها أجنبية وغريبة عمّا سبقها ولحقها من الآيات، وأثبتنا أنّ هذا من الصور البلاغية التي لها عدّة أمثلة في القرآن الكريم، على هذا فإنّ الجملة الخارجية لا يمكنها أن تكون تعليلاً وشرطاً للآيات التي تكفّلت الأوامر والنواهي. وقد أجبنا بالتفصيل آنفاً على ما قد يثيره الآلوسي وأضرابه هنا من شُبهة مناسبة التدوين وإقحام آية التطهير في هذا الموضع، ولا داعي لتكرار القول بأنّ الآيات قسّمت عائلة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى فريقين ولم يكن أنسب من هذا الموضع لبيان الفرق واستثناء **«أهل البيت»** عليهم السلام من مظانّ الانحراف والعصيان، وما أُثير من احتمالاتٍ بحقّ زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله لقطع الطريق على المغرضين من خلال دفع هذا الوهم، فأهل البيت عليهم السلام ليسوا كزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا تنبغي ولا تصحّ المقارنة بينهما، ولم يكن أفضل من هذا الموضع لهذه الآية حتّى تؤدّي ذلك الدور.

٣ ـ إذا افترضنا الملازمة وقلنا: إنّما تتحقّق إرادة الباري في تطهير **«أهل البيت»** عليهم السلام عند امتثالهم لأوامر الله ونواهيه، فإنّ ذلك ينفي ويلغي أيّ امتياز وفضيلة تقرّرها الآية لهم (ومن المتّفق عليه بين الجميع أنّ الآية تشكّل فضيلة ومنقبة خاصّة **«لأهل البيت»** عليهم السلام؛ لأنّ القاعدة سارية على جميع المسلمين، فإذا ما أطاعوا الله فإنّ النتيجة ستشملهم).

وهل من الممكن أن يلازم التقوى مسلم ويطيع رسول الله صلى الله عليه وآله ويتجنّب القبائح ثمّ لا يكون محلّاً لعناية الله تعالى، ولا يتطهّر ويبقى ملوّثاً

بالأرجاس؟! هل يصحّ حصر نتيجة تلك المقدّمة في «أهل البيت» عليهم السلام فقط بحيث لو كانوا كذلك لأصبحوا هكذا؟! ألا يشكّل هذا حالة من التفرقة وعدم المساواة؟ ألا يخلّ بالموضوعية والعدالة التي تفترض انطلاق الجميع في طريق السلوك والرقي الروحي من نقطة بدء واحدة، وتتاح لهم الفرصة على السواء بما يمكنهم نيل الأجر والرحمة واللطف الإلهي على قدر السعي والإخلاص؟ ألا يعني هذا أنّ الإسلام لا يفسح مجال التكامل وأسباب نيل السعادة وكسب الرضوان الإلهي أمام الجميع على السواء؟!

وإذا قال الآلوسي: إنّ الوجه الذي تميّز به «أهل البيت» عليهم السلام هو أنّ الله سبحانه اختصّهم بالمزيد من العناية والاهتمام في قبول أعمالهم، وأنّ آية التطهير تزيدهم أملاً وتفاؤلاً في قبول صالح أعمالهم، ممّا لا يخدش بالمساواة ولا يثير الإشكال السابق.

فنقول في الردّ عليه: ما هو الدليل على هذا المدّعى ومن أيّ مواضع الآية الشريفة انتُزع هذا المعنى؟ ولعمري هل علينا أن نختلق ونتعسّف إلى هذا الحدّ لنبرّر أوهام ومدّعيات ما أنزل الله بها من سلطان؟ فأين الأمل والمزيد من التفاؤل في قبول الأعمال من التطهير وإذهاب الرجس؟! هل الآلوسي بصدد تفسير الآية واستخراج مدلولها أم أنّه يريد تلفيق وتركيب معنى ينطبق على رأيه ويتوافق مع ما توهمته مخيّلته؟!

إنّ البحث العلمي، وخصوصاً في تفسير الآية القرآنية يقتضي الموضوعية والحياد، بحيث يدخل المفسّر البحث وهو خالي الذهن من قرار مسبق وعقيدة مُتبنّاة، فينظر في الآيات إلى ما يؤيّد رأيه ويحمّلها

المعنى الذي يريد، وإذا ما اعترضته آية لا توافقه راح يحتال بكلّ حيلة ويتعسّف في تأويلها وتفنيد مدلولها حتّى يتحقّق مطلوبه! إنّ لهذه المسألة أهمّية كبيرة في فهم الأهداف القرآنية السامية، وعلى المفسِّر أن ينصاع ويتوافق مع المقاصد القرآنية لا أن يتلاعب في المعاني ويقلبها حتّى يبلغ مراده هو.

وعلى كلّ حال وبالنظر لما سبق، يظهر بما لا يقبل الشكّ أنّ الإرادة في آية التطهير ـ بناءً على الظهور النوعي ـ هي إرادة تكوينية، وهي لطف إلهي خصّ به فريق «**أهل البيت**»عليهم السلام من عائلة النبيّصلى الله عليه وآله بهدف إعداد هذه الثلّة لدور حفظ الدين وقيادة المسلمين، وما يشكّل امتداد خطّ الهدى بعد وفاة النبيّصلى الله عليه وآله، وهذا المعنى والرأي موافق لظاهر الآية ولا يستلزم أيّ تأويل وتعسّف.

الإرادة التكوينية والجبر

ظنّ جماعة أنّ القول بالإرادة التكوينية يثير شبهة الجبر ولا يسمح بمعالجة مُقنعة لها، فعندما تتعلّق إرادة الباري الأزلية بطهارة «**أهل البيت**»عليهم السلام، فإنّ عصمتهم حتميّة ووقوع الذنب منهم محال عقلاً؛ لأنّ المراد لا يمكنه أن يتخلّف عن المريد (الله)، إذن صدور المعاصي عن «**أهل البيت**»عليهم السلام غير ممكن بل ممتنع، وهم مجبورون على الامتناع عن الذنب، مسيّرون على الطاعة فلا فضل ولا فخر لهم![1].

---

(١) الإشكال لا يختصّ بهذا المورد (آية التطهير) فقط، وإنّما يشمل جميع القضايا الأزليّة كاختيار الأنبياء ومنح الاستعدادات الأوّلية والكمالات الخلقية من جمال الهيئة وسلامة الحواس والفطنة والذكاء، بل وصفاء الروح واعتدالها.

خروج من موضع الشبهة

لقد سلك العلماء وطوى المحقّقون طرقاً شتّى لمعالجة شبهة الجبر والتخلّص من هذا الإشكال العويص[1]، ونحن يمكننا هنا اللجوء إلى اتجاه آخر في البحث هو إخراج الآية من مورد الشبهة أصلاً، وهو ما يغنينا عن ولوج مسألة الجبر وتخريجاتها، وبشيء من التدقيق في مفاد الآية الشريفة نرى أن لا وجود للشبهة حتّى نبحث عن مخرج لها!

---

(١) نشير باختصار إلى بعض الردود والحلول التي يطرحها علماؤنا لهذه الشبهة:

منها: أنّ الله اطّلع في علمه فرأى عبادتهم وخلوصهم وكمالهم، ووقف بعلمه على ما سيبلغونه من مراتب القرب فخلع عليهم العصمة، فهي إذن عن جدارة واستحقاق، ولمقابل قاموا بأدائه (في علم الله).

ومنها: أنّ الأمر منوط الظرف والوعاء، من حيث إنّ مبدأ الحقّ فيّاض والخير متدفّق منه غير منقطع، وإنّما يغترف كلٌّ على قدر إنائه ووعائه، وما يحصّلون عليه من عصمة وعلم وكرامة و... إنّما اغترفوه من بحر جود الباري عزّوجلّ، واستحوذوا عليه لسموّهم وعلوّ هممهم ولم يكن الخالق ليبخل على أحد، فقد وهب الله العصمة للجميع ولكن من تلقاها هم الأئمّة والأنبياء عليهم السلام فقط، إذن هو نتيجة سعي ووفق أساس لا يخدش العدالة الإلهية ولا يناله الجبر.

ومن الآراء في هذا الباب، أنّهم صلوات الله عليهم كانوا قبل قانون العمل والمجازاة، حيث كانوا ولم يكن شيء، وقد تواترت الروايات في هذا المعنى (من قبيل ما جاء في الزيارة الرجبية والزيارة الجامعة الكبيرة)، وما قام عليه الدليل الفلسفي من أنّهم العقل والفيض الأوّل حيث الفضل للمقام لا العمل، فكمالات العصمة والعلم والولاية من مستلزمات ذلك المقام ومقتضياته، فهم التجلّي التام لله ولابدّ للمرآة التي يتجلّى الله فيها أن تكون صفاءً تامّاً وطهراً كاملاً خالية من أيّ كدر للمعصية، وإلّا لفقدت صلاحيتها كمجال للتجلّي الإلهي، وهناك وجوه ومعالجات أُخرى.

بماذا تتعلّق إرادة الحقّ تعالى في الآية الكريمة؟ إذا كان متعلّق الإرادة هو «إبعاد» الرجس والذنب عن «أهل البيت» عليهم السلام لا منعهم عن ارتكابه والوقوع فيه هل يبقى لشبهة الجبر محلّ؟ إذا كان مفاد الآية هو أنّ الباري أراد إضفاء الحصانة من الذنوب على «أهل البيت» عليهم السلام وأنّه تعالى متولّي هذا الأمر والقائم على تحقيقه لكان للشبهة محلّ، ولكن بشيء من التأمّل في الآية نرى أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾.

إنّ إعراب كلمة «ليُذهب» هو مفعول به، وهي ذاتها التي جاءت في آيات أُخرى تارةً محلّاة بـ«اللام» وتارةً بـ«أنْ»، على سبيل المثال، فقد جاءت في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وفي السورة نفسها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾[2]، وبملاحظة الآيتين يتبيّن أنّ «اللام» في الآية الأُولى ليست للغاية بل هي بمعنى «أنْ»، التي جاءت في الآية الثانية، ولا ترديد في أنّ ﴿أنْ يُعذّبهم﴾ في الآية الثانية هي مفعول به للفعل «يريد» (على التأويل بالمصدر، أي: يريد عذابهم).

وهكذا في مواضع أُخرىٰ من القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[3]، ومن هذا القبيل الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[4]، ونستنبط من هذا التفاوت في التعبير اتحاد المعنى بين

---

(١) التوبة: ٥٥.

(٢) التوبة: ٨٥.

(٣) الصف: ٨.

(٤) التوبة: ٣٢.

«اللام» و«أن» في مثل هذه الموارد، وبالنتيجة هو مفعول به للفعل «يريد الله».

وبهذا البيان اتّضح أنّ متعلّق الإرادة في آية التطهير هو الإذهاب المراد به الإبعاد، أي أنّ الله أراد إبعاد الرجس عن «أهل البيت» عليهم السلام، بمعنى إيجاد فاصل بينهم وبين المعاصي والأرجاس، إذن التدخّل الإلهي كان من هذه الزاوية فقط، تدخّل يوجد مسافة تفصل بين المعاصي و«أهل البيت» عليهم السلام، فلا تدنو منهم المعاصي ولا تقربهم الأرجاس. على هذا فإنّ إرادة الباري لم تنعقد على عدم فعلهم الذنوب بل على إيجاد المسافة الفاصلة التي تنزّههم وتبعّدهم عن الذنوب.

والوضع المقابل لهذه الحالة هو وجود قرب بين بعض الأشخاص وبين المعاصي والذنوب، هناك أُناس يقفون دائماً على أعتاب المعاصي والأرجاس، وهذا الموقف وهذه الحالة هي مدخل التعاسة ومبعث الشقاء، من هنا فإنّ القرآن ينهى عن الاقتراب من الذنوب حيث لا يعود ثمّة فاصل بين الاقتراب من الذنب واقترافه! وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1].

إذن فمفاد آية التطهير هو إبعاد الرجس عن «أهل البيت» عليهم السلام (وسيأتي معنى الرجس)، ولا يخلو ـ بطبيعة الحال ـ هذا «الإبعاد» من عناية ولطف إلهي اختصّ به هؤلاء صلوات الله عليهم، ولكنّه لا يعني بأيّ حال من الأحوال سلبهم الإرادة والاختيار وعدم صدور المعصية عنهم جبراً، إنّ الفصل بين الإنسان والذنب ليس جبراً بل هو توفيق،

(١) الأنعام: ١٥١.

ولم يشمل الباري تعالى الجميع بخاصّة عنايته ومخصوص لطفه، إنّه توفيق وفضل إلهي لا يؤتيه الله إلّا من يشاء ولا يلقّاه إلّا ذو حظّ عظيم.

لقد مضت البُنية والحركة الاجتماعية لبعض الأفراد على نحو جعل حياتهم أقرب ما تكون لأجواء المعصية وفي معرض الفساد ومتناوله، فيعيشون إلى جوار الخمارات وفي أوساط تعجّ بدور اللهو والرذيلة، حقّاً إنّه لسوء توفيق وتعاسة تلازم عالم ومجتمعات اليوم حيث يعيش الناس في بيئة فاسدة ومحيط يغطّ بالفسق والفجور، ولكنّنا نجد أنّ في وسط هذا العالم المضطرب العاصف بالفساد مَنْ منَّ الله عليه ولطف به ففصل بينه وبين هذا الخضم المتلاطم ونجّاه من الوقوع في المعاصي، لاشكّ في أنّ هؤلاء مشمولون بلطف وعناية إلهية خاصّة، وهكذا «أهل البيت»عليهم السلام الذين شملتهم بلطف الرحمن ـ جلّ وعلا ـ أعظم عناية بظهور فاصل أبدي بينهم وبين مطلق الرجس، فانصرفوا عن توافه الأمور وأصبح بينهم وبين المعاصي بون شاسع لا تطويه ملايين الفراسخ، فلا يتلوّثون بالذنوب ولا تنالهم المعاصي، ولكن هذه الطهارة عن الذنب ليست أمراً قهرياً أُجبر عليه «أهل البيت»عليهم السلام، بل لما كانت أرواحهم السامية تسبح في بحر الفضيلة والطاعة بعيداً عن المعاصي والذنوب، فإنّ المعاصي والذنوب ـ المُبعدة والمنفية ـ لا تجد سبيلاً ولا تعثر على منفذ وملمز يمكنها من اختراق الحُجب الفاصلة بينها وبين تلك الأرواح الطاهرة، فلا يعتري ضمائرهم شيء من شوائب الأرجاس وكدر المعاصي!

على هذا فإنّ دور الإرادة الإلهية كان مجرّد إيجاد الفاصل بين

«أهل البيت» عليهم السلام والرجس[1] لا تحصينهم من الذنوب على نحو يسلبهم الاختيار ويُدخل الأمر في الجبر، والفصل ـ بطبيعة الحال ـ هو من قبيل اللطف الخاصّ والعناية، وهو ما يُعبّر عنه بـ «التوفيق»، ولا يصحّ بحال أن يوسم هذا التوفيق بالجبر.

وللمزيد من الدراسة لهذا المبحث الدقيق سنعرض في الفصل القادم للبحث في معنى الرجس.

■ ▣ ■

(١) وهذه الحالة ليست ضرباً من الإبهام والوضع الغريب، بل هي حالة معهودة ومعروفة عند سائر المؤمنين، وتشكّل أملاً وأمنية دائمة يرجونها، فيكرّرون في أدعيتهم ويسألون الله سبحانه إبعاد الأرجاس والذنوب عنهم، ويدأبون على الاستعاذة من «إبليس» مصدر الأرجاس والذنوب «نعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، والرجيم أي: المطرود والمنفي المُبعد.

النكتة الرابعة:

الرجس في النظرة القرآنية

ذكرت كلمة «الرجس» في عشرة مواضع من القرآن الكريم ضمن آيات مختلفة، وبشيء من التدقيق في هذه الآيات العشر يتّضح معنى الرجس.

وللرجس بطبيعة الحال معنى عام جامع هو الشيء المستقذر، ولكن إطلاق الرجس في القرآن الكريم شمل منابع القذارة المتعدّدة واستعمل بلحاظ المنشأ الذي ينبعث منه التلوّث الروحي أيضاً.

على سبيل المثال في الآية: ﴿... إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] أطلق الرجس على الخمر والقمار والأصنام وأعواد الخشب التي كان أهل الجاهلية يتّخذونها على هيئة السهام ويقتسمون بها (الأزلام)، وقد حُمل هذا المفهوم على تلك الذوات الأربع بلحاظ أنّ تلك الموضوعات عوامل يستتبعها الرجس وينشأ عنها، ويشهد على ذلك الآية التالية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[2].

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) المائدة: ٩١.

ومن هاتين الآيتين يتّضح معنى الرجس: فالخمرة تُذهب العقل، والمقامرة تورث العداوة وتزرع الخسّة والدناءة، وذهاب العقل يجعل النفس مرتعاً للرذائل، وبالنتيجة تصاب الروح بالغفلة وتصبح وكراً لعبث الشيطان، فيحرم الإنسان عن التكامل الروحي والسموّ الأخلاقي، وقد أُطلق على هذه الظواهر (زوال العقل ونموّ الرذيلة) في لغة القرآن «رجس» بلحاظ عامل بروزها ومنشأ ظهورها وهو الخمر والميسر و... ، باعتبار آثارها التي تتحقّق عند ممارستها وارتكابها، ولذا جاء في ذيل الآية ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي أنّها تأتي بتحريض منه، وأنّ غرضه من ذلك هو ما ذكرته الآية ٩١ ﴿أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ...﴾، بناءً على ذلك فإنّ الرجس الحقيقي هو تلك النتائج المترتّبة على ارتكاب هاتيك الأفعال وما ينتظره الشيطان منها!

أمّا الآية الأُخرى من سورة الأنعام فقد عبّرت عن ضيق الصدر وانقباض النفس بـ«الرجس» إذ يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ويلاحظ أنّ الآية عبّرت عن ضيق الصدر بـ«الرجس»، وأنزلته منزلة. إذن فالروح الكدرة بالمعاصي المضطربة بالآثام، المنقبضة التي تعيق القذارات تنفّسها الصحيح، كالمصابين بالربو وضيق التنفّس!... تُسمّى رجساً. فالروح التي استحوذت عليها الأرجاس روح نسجتها القبائح، هي روح تعيش حياة مأساوية، وتجدها عاصية

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

متمرّدة على تطلّعات النور ومنقبضة عن إشراقات الحقّ في الحياة الإنسانية يعسر عليها هضم الحقائق وفهم البيّنات. وتراها ـ في الجهة المقابلة ـ على النقيض من ذلك روحاً مفعمة بالحياة، تتحلّى بأرضية خصبة، تسبح في صدر رحب يتلقّ الحقائق بيسر وسهولة ويهتدي لنورها في رفق ودون تكلّف. ونرى ـ بتناسب ما ـ أنّ آية أُخرى تعبّر عن الأمراض الروحية والآفات القلبية، كالبخل والحسد والحقد والجهل بـ«الرجس» أيضاً. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1]. فالآية تقرّر أنّ ذوي الأرواح المريضة والأنفس السقيمة يزدادون علّة وسقماً كلّما نزلت سورة من القرآن، وأنّ الداء القلبي يستفحل في نفوسهم بتراكم الأمراض والأرجاس حتّى يصابوا بالكفر والإلحاد. ومن التعبير «فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم» المسبوق بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يثبت أنّ المرض النفسي والآفة الأخلاقية هي أيضاً «رجس». وممّا ذهب إليه ابن عبّاس، وهو المفسّر الكبير وأحد تلاميذ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، في معنى «الرجس» المذكور في آية التطهير، حيث فسّره بالمرض القلبي والسقم الروحي، في محاورة له مع عمر بن الخطّاب يرد عليه مقالته التي ذكر فيها بني هاشم بالسوء، إذ قال عمر: «على رِسلك يا ابن عبّاس! أبت قلوبكم يا بني هاشم إلّا غشّاً في أمر قريش لا يزول

(١) التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥.

وحقداً عليها لا يحول» فقال له ابن عبّاس: «مهلاً ... لا تنسب هاشماً إلى الغشّ، فإنّ قلوبهم من قلب رسول الله الذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»[1].

نتيجة البحث:

اتّضح من هذه الآيات أنّ الرجس داء يصيب الروح وينال من سلامتها، فالخمر والميسر كانا رجساً لأنّهما يسلبان العقل ويملآن فراغه في الصدر بغضاً وعداوة، فهما يضيّقان الخناق على البُعد الملكوتي في النفس الإنسانية ويصدّانها عن السموّ والتكامل.

فالصدور الكدرة الممتلئة بالرذائل مبتلاة بالرجس، ومثل هذه الصدور تفتقد الأرضيّة لتلقّي الفضائل واستقبال المحاسن، وتتقاعس عن السعي في طريق الكمال والأخذ بأسباب النجاة، وتجدها تقضي حياتها أسيرة في حبائل الشهوات متردّية في مستنقعات الحقد والحسد، وهذا التلوّث بالرجس هو الذي يقود البشرية إلى الدمار ويسوقها نحو مصير مؤسف ومستقبل مظلم!

وعلى أيّ حال، فإنّ جميع الأمراض الروحية والآفات الأخلاقية التي تخفت أوار الحقّ وبريق إشعاعه في ضمير الإنسان وتكدر صفاء الروح وتنال من عظمة النفس، وتقضي على الخير المودع فيها والذي يتجلّى في صور التسليم للحقّ والإذعان للحقيقة بعد السعي لها وللقيم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢: ٥٣ـ٥٤.

المعنوية العالية هي رجس.

والآن، بعد أن اتّضح معنى الرجس بالاصطلاح القرآني نرى أنّ جميع عوامل الشقاء قد أُطلق عليها الرجس، فهو العلّة الأُولى لجميع الأمراض الروحية التي تحول بين المرء وإدراكه الحقائق، وتدفعه للتمرّد والطغيان والمكابرة على الرضوخ للحقّ، وعدم الإذعان للقيم المعنوية حتّى ينتهي الأمر به إلى الكفر والإلحاد، إنّ «الرجس» يعرّي الإنسان عن جميع الفضائل ويخلفه روحاً مُشبعة بالآفات والأسقام، وقد جعل القرآن «ضيق الصدر» عنواناً جامعاً لهذه العلل.

على هذا فإنّ مؤدّى آية التطهير هو أنّ الله سبحانه شرح صدور «أهل البيت»عليهم السلام، ولم يبتلهم بضيق الصدر، وصوّر قلوبهم سليمة معافاة من الأمراض الروحية التي جعل بينها وبينهم فاصلاً وبوناً لا يسمح بسريان الداء وتسرّبه إليهم.

إنّ «أهل البيت»عليهم السلام الذين انفصلوا عن الآفات والأمراض التي تحول بين المرء والإذعان للحقّ وتدفعه للتمرّد عليه، تجدهم بتلك القلوب النقيّة والصدور الرحبة في حالة من الانقياد المحض لإرادة الباري تعالى، والاستعداد التام لتلقّي القيم المعنوية وفهم دقائق أسرارها، وقد سلكت بهم تلك الفاصلة وهذه الرحابة إلى قمّة الإنسانية الشامخة، وجعلتهم صفوة الله التي تسبح في بحر الفضائل والكمالات.

وما هذا الفاصل وتلك الرحابة إلّا من فضل الله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ...﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

لذا فإنّ عدم تلوّثهم بالذنوب معلول لسعة صدورهم ورحـابتها وامتلاء أرواحهم بالفضائل والكمالات وتعلّقها، هكذا يـتبيّن أنّ آيـة التطهير شاهد صدق على عظمة أرواح هذه الصفوة، وبرهان حقّ على سمو أفكارهم وتحرّرهم من قيود الآفات الروحية وخلاصهم من تبعات الأمراض الأخلاقية، وما هـذه العـظمة إلّا مـوهبة إلهـية، وهـي التي نزّهتهم عن الذنوب وطهّرتهم عن المعاصي، وهي التي فتحت أبـواب الفضائل والخيرات أمامهم لينهلوا منها الغاية والحدّ الأقصىٰ، فالإنسان العظيم لا يجـاور الرذائل، والفكر السـليم لا يسـتمدّ مـن الخـرافـات والأباطيل، والنفوس القويّة والهمم العالية لا تتمكّن منها الاضطرابات الروحية ولا يمكنها أن تصبوا إلى المعاصي، وآية التطهير عنوان وعلامة على تمتّع «أهل البيت»عليهم‌السلام بهذه الكمالات الروحية الدافعة إلى الخـير والمانعة للشرّ، فلعمري إن كانت هـذه المـواهب الجـمّة والفـيوضات الزاخرة التي نزلت على «أهل البيت»عليهم‌السلام جبراً فأيّ فيضٍ لا يكـون كذلك ومتى وفيمن تتحقّق حالة الإرادة والاختيار؟!

فعندما نرى عليّاًعليه‌السلام يمثّل القمّة في التقوى، فلأنّه ينطلق من تلك الركائز، وإذا كان يـقول: **«والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تـحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»**[1]، وإذا كانت الدنيا عنده أزهد من عفطة عنز[2] وأهون من ورقة في فم

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٣، الخطبة ٢٢٤، بحار الأنوار ٧٥: ٣٦٠ح٧٦.

(٢) نهج البلاغة: ٣٠، الخطبة ٣ .

جرادة تقضمها[١]، وكعراق خنزير في يد مجذوم[٢]، وكانت قيمة الرئاسة والإمرة عنده دون شسع نعل بالية[٣]! فكلّ ذلك لما أشارت إليه آية التطهير من المنح والمواهب الإلهية التي منّ الله بها على أمير المؤمنينعليه السلام، فنوّره بالعلم والمعرفة، وأذهب عنه الرجس وطهّره تطهيراً، فتسامى على هذا العالم وتعالى عن هذه الدنيا وحلّق في سماء المجد والعظمة في الآفاق التي أرادها الله له وللعترة الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين. وهكذا إذا وجدنا ابنه الحسينعليه السلام يقدّم رضيعه ذا الأشهر الستّة وفتاه ذا الثمانية عشر ربيعاً قرابين على طريق محبّة الله وفي سبيل إنقاذ عباده من جور يزيد وتحريرهم من استبداده، ويتلو ذلك بسوق نسائه وعقائل بيته الشريف أُسارى لبني أُمية وابن آكلة الأكباد، فذلك لتلك المواهب والنعم التي سبقت له من الباري عزّوجلّ وجعلته ـ كنتيجة للابتعاد عن الرجس ـ عاشقاً لله، مسلّماً لأمره وإرادته، هائماً في حبّه ومؤثره على التعلّق بالدنيا وحبّ فلذات كبده!

تقرير حقيقة

وما كان هذا اللطف الخاصّ ليأتي عبثاً وخبطاً مزاجياً لا يخضع لقاعدة وأساس ومعيار، ولا يظنّن أحد أنّ العناية الإلهية تنصب دون حكمة وبشكل عشوائي لا يراعي استعداد الإنسان وقابليته لتلقّي هذا

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٣، الخطبة ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة: ٧٠٢، الحكمة ٢٣٦. بحار الأنوار ٤٠: ٣٣٧ح ٢١ و ٧٣: ١٣٠ ح ١٣٥.

(٣) انظر نهج البلاغة: ٧٠، الخطبة ٣٣.

العطاء الكبير، وأنّ الأمر شمل «أهل البيت»عليهم السلام لمجرّد كونهم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وقرابته! كلّا إنّ هذا التصوّر وهم باطل. إذ إنّ أرضية العطاء والاستعداد لتلقّي العناية واللطف الخاصّ أمر بيد الإنسان ورهن رغبته وإرادته، فهو الذي يصنع نفسه ويهيّئ حاله لتكون على ذلك المستوى، وهذا بحث يطول نتركه لمقام آخر ونكتفي بالإشارة إلى آية قرآنية أومأت إلى السرّ في العطاء الإلهي الخاصّ والعناية المتميّزة، تفتح آفاق التحقيق والبحث أمام القارئ الكريم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾[1]. فالآيتان تقرّران أنّ سرّ الإنعام الإلهي ومفتاح تلقي الفضل الخاصّ هو طاعة الإنسان وعمله في سبيل حياة خالدة، وذلك بامتثاله أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله. إذن مردّ السعادة والتكرّم بالفيض الإلهي يعود للإنسان نفسه ومدى سعيه لتحقيق أرضية أكثر استعداداً لتلقّي المزيد من الفيض والعطاء الإلهي غير المجذوذ ولا المحظور.

■ ▣ ■

---

(١) النساء: ٦٩ ـ ٧٠.

النكتة الخامسة:

المقصود من «أهل البيت» في آية التطهير

تُرى هل هو البيت العتيق (الكعبة) وجميع المسلمين (أهل القبلة) هم أهله، أم هو بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأهله هم عشيرته وعائلته، أم هم كلّ من يمتّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بصلة قرابة أو نسب ممّن لا يُستقبح اجتماعهم تحت غطاء واحد، ويصحّ تواجدهم وعيشهم في نفس البيت، فيشمل هذا العنوان نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وأبناءه بالإضافة إلى أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام؟ أم أنّ «أهل البيت» ينصرف إلى المعنى العرفي المتداول الذي يطلق على عيال المرء وأزواجه، فلا يعدو بذلك نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، أم أنّ هناك معنى آخر صرفت إليه هذه العبارة؟

هذه أقوال ممّا طرحه وذهب إليه كبار المفسِّرين، ولكنّنا نرى أنّها لا تنطبق مع المعنى الواقعي لكلمة «أهل البيت» في الآية الكريمة.

إنّ كلمة «أهل البيت» هي عنوان مشير وتحكي عن حادثة وقعت.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلمة «البيت» تشير إلى بيت من بيوت نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، والألف واللام عهدية، وأهل البيت هم الذين كانوا مجتمعين في الزمان والمكان المعيّنَيْن (حين نزول الآية وفي بيت أُمّ سلمة وفقاً لتعيين الروايات)، فنزلت الآية في شأن ذلك الجمع تقريراً لفضلهم

ومنزلتهم وفقاً لمفادها ـ كما سبق إثباته ـ، فصار ذلك الجمع يُعرف بـ«أهل البيت»، وعلى هذا الفرض فإنّ «أهل البيت» إشارة إلى الخمسة المجتمعين في بيت أُمّ سلمة.

وفي بداية الأمر حين نزول الآية لم تكن هذه العبارة تحمل إلّا معنى الإشارة، ولكن بمرور الزمن صار لها معنى علمي حتّى غدت عنواناً خاصّاً للخمسة المجتمعين في ذلك البيت، ويمكن القول: إنّ هذا الفرض هو الأرجح والأكثر تطابقاً مع الواقع من بين جميع الاحتمالات التي افترضها المفسِّرون، وها نحن نعرض مزيداً من التوضيح.

المدّعى

تحديداً لنطاق البحث نقول: إنّ المدّعى هو: أنّ «أهل البيت» هم الخمسة أصحاب الكساء الذين كانوا مجتمعين في بيت أُمّ سلمة. والحدث وإطلاق المصطلح هو نظير «يوم الدار» الذي يشير إلى اليوم الذي جمع فيه رسول الله صلى الله عليه وآله عشيرته في دار أبي طالب عليه السلام[1] ليعلن نبوّته ودعوته، وأصبحت كلمة «يوم الدار» عنواناً خاصّاً لتلك الواقعة وذلك اليوم، وكلمة الدار تشير إلى دار أبي طالب عليه السلام. هكذا أصبحت عبارة «أهل البيت» تحمل وتتضمّن معنى علمياً للخمسة الذين دخلوا تحت الكساء في دار أُمّ سلمة.

---

(١) عندما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

أدلّة وإثباتات المدّعى

١ ـ إنّ الآيات التي ذُكر فيها لفظ «البيت» التي سبقت آية التطهير أو لحقتها جاءت على صيغة الجمع المحلّى بنون النسوة «بيوتكنّ»، وهذا ممّا يعني أنّ «البيت» إشارة إلى بيت معيّن من تلك البيوت (بيوت الزوجات) أو حجرة من تلك الحجرات، وحيث إنّ المراد من «بيوتكنّ» هو بيوت زوجات النبيّ ﷺ فلابدّ من أن يكون «البيت» من ذلك النسيج أيضاً، وبدخول «ال» التعريف على أحد تلك البيوت تعيّن أنّ المراد هو بيت أمّ سلمة، وممّا تظافرت واتّفقت عليه وشهدت به الروايات من الفريقين أنّ الآية نزلت في ذلك المكان التاريخي. وبملاحظة ما سلف بيانه وإثباته في قضية ترتيب الآيات وانتظام النصوص القرآنية، وأنّ ذلك من الوحي وممّا أمر به النبيّ الأكرم ﷺ وأمضاه، فإنّ هذا الدليل سيحتلّ موقعه وستتجلّى حجّته.

٢ ـ إنّ مبادرة واندفاع أُمّ سلمة رضوان الله عليها وحرصها الشديد على الاستفهام من النبيّ ﷺ وسؤاله عن مدلول الآية فور نزولها وهل هي مشمولة بها أم لا؟ والجواب السلبي التي تلقّته عن سؤالها يدلّ على أنّها كانت تعيش وهماً، وأنّ شبهة اعترتها وجعلتها تستفهم، وما لذلك الوهم وتلك الشبهة من مدخل وعلّة إلّا كونها انتزعت من عبارة «أهل البيت» التي جاءت في الآية مفهوم «الساكنين في بيتها»، فحيث كان المراد من «أهل البيت» المجتمعين في بيتها فقد ظنّت أنّ الخطاب شملها أيضاً. وإن قيل: إنّ منشأ سؤال أُمّ سلمة هو انتزاعها معنى زوجات النبيّ ﷺ من عبارة «أهل البيت» وإنّ استفهامها كان من هذا المنطلق، فإنّه مدفوع بكون احتمال شمول الآية لعموم الزوجات كان

منتفياً لدى أُمّ سلمة إذ استفهمت عن حالها فقط، ولم تفرض بأيّ وجه أن تكون بقيّة الزوجات مشمولات أيضاً.

٣ ـ إنّ آية التطهير ـ وفقاً للروايات المعتبرة والمشهورة، وممّا تسالم عليه الجميع ـ تشمل شخص النبيّ الأكرمﷺ أيضاً، وحيث إنّ معنى عبارة «أهل البيت» وفقاً لجميع الوجوه الأُخرى غير قابل للانطباق على رسول اللهﷺ، فلا مناص من الإذعان بالمعنى القائل: إنّها تقصد المجتمعين في ذلك البيت المعيّن «بيت أُمّ سلمة».

٤ ـ لقد ذكرت عبارة «أهل البيت» في موضع آخر من القرآن الكريم، وقد استُعملت في ذلك الموضع أيضاً بمعنى المجتمعين في أحد بيوت النبيّ إبراهيمعليه السلام، إذ كان إبراهيمعليه السلام مختلياً بزوجته سارة في الحجرة، فهبطت الملائكة المرسلة إلى لوط النبيّ في مهمّة ما وجعلت طريقها على دار إبراهيم، هبطت على إبراهيم الذي كان واقفاً في داره بينما كانت زوجته سارة جالسة لتبشّرهما بحمل سارة وبمولود عزيز هو إسحاق وبحفيد عزيز يأتيهم من إسحاق! فتذهل سارة من هذه البشارة وكيفيّة تحقّقها في زوجين بلغا سن اليأس! فتجيب الملائكة عن سؤال سارة وعجبها ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1]. [2]

---

(١) هود: ٧٣.

(٢) إشارة إلى الآيات الكريمة ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُم لاَ تَصِلُ إِلَيهِ... إِنَّ هَـٰذَا لَشَـيءٌ عَـجِيبٌ﴾ (هود: ٧٠ ـ ٧٢) التي ذكرت القصّة، وتفصيلها في التفاسير، وتعميماً للفائدة نلخّص ما جاء في إحداها، ذكر صاحب الميزان أعلى الله مقامه أنّ الرسل هم الملائكة، وظاهر ←

فهل يصحّ أن نصرف المقصود من «أهل البيت» في هذه الآية إلى أهل القبلة أو زوجات إبراهيم عليه السلام أو أقربائه؟ من المقطوع به أنّ الجواب منفيّ. إنّ فصول القصة وتوالي أحداثها لمّا يقتضي هذا التعبير ويفرض استعمال مثل هذا الإطلاق، فدخول الرسولين على شكل ضيفين وامتناعهما عن الأكل، والخوف الذي انبعث في قلوب أهل البيت وأصحاب الدار من هذا الموقف ثم انكشاف العلّة في ذلك وكونهما من الملائكة جعل من هذا التعبير أفضل اسلوب وألطف وأبلغ عبارة لنقل بشارة البارئ تعالى لإبراهيم وسارة من خلال نسبته للدار والبيت الذي يأويان إليه لاستراحتهما.

٥ ـ هناك شواهد من الأحاديث الشريفة تثبت المدّعى:

أ) في رواية أحمد بن حنبل أنّ أمّ سلمة قالت: كان النبيّ صلى الله عليه وآله في بيتي وكنت أصلّي في مخدعي إذ نزلت آية التطهير، **فأدخلتُ رأسي في البيت فقلتُ: وأنا معكم يارسول الله؟**[1] ويتّضح من هذا المقطع من الرواية أنّ البيت كان فيه مخدع، وأنّ أمّ سلمة كانت منشغلة فيه بالعبادة

← السياق أنّ البشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم أنّها البشارة بإسحاق، فتسالموا هم وإبراهيم، ثمّ قدّم إليهم عجلاً مشوياً فلم يأكلوا منه، وذلك أمارة الشرّ، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ فعلم أنّهم من الملائكة الكرام المنزّهين عن الأكل والشرب، وبينما كان يكلّمهم ويكلّمونه في أمر الطعام وامرأته قائمة هناك تنظر إلى ما يجري بين إبراهيم وضيفيه وما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك، ففاجأها الحيض فبشّرتها الملائكة أنّها ستلد إسحاق، وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد، فعجبت واستنكرت ذلك فقالوا لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ ... (الميزان في تفسير القرآن ١٠: ٣٣٢ـ٣٣٧).

(١) المسند لأحمد بن حنبل ١٠: ١٧٧ ح ٢٦٥٧٠، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٤٩٢.

حين نزول الآية، فأطلّت برأسها من المخدع وسألت انضمامها وشمولها بالعناية الإلهية. وهذا يعني أنّ أمّ سلمة انتزعت من عبارة «أهل البيت» في الآية أنّ المجتمعين تحت ذلك السقف حظوا بالمكرمة، فأرادت غيضاً من فيض، فأطلّت برأسها وسألت النبيّ صلى الله عليه وآله : وأنا معكم؟ فإن لم تكن آية التطهير تشمل كلّ من كان في ذلك البيت، وتحت ذلك السقف ما كانت أمّ سلمة لتطمع وتطمح في أن تشملها الآية هي أيضاً. إذن كلمة «البيت» في الرواية تُعدّ قرينة على أنّ المراد من «أهل البيت» في الآية هو عنوان أهل البيت المجتمعين في دار أُمّ سلمة والمتواجدين تحت ذلك السقف[1].

ب) جاء في رواية ابن جرير أنّ أُمّ سلمة قالت: «وأنا جالسة على باب البيت فقلت أنا: يارسول الله ألست من أهل البيت؟»[2] ترى لِمَ كان سؤال أُمّ سلمة هذا؟ هل كانت في شكّ من كونها إحدى زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله ؟! كلّا بطبيعة الحال، ولكن وجه الاستفهام في سؤال أُمّ سلمة يفهم من كلامها ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: وأنا جالسة علىٰ باب البيت فقلت: يارسول الله أَلست من أهل البيت؟» تعني الساكنين والمجتمعين في تلك الدار وتحت سقف واحد.

وعلى هذا الأساس فهمت أُمّسلمة ـ رضي الله عنها ـ من كلمة «أهل البيت» هذه المجموعة المتواجدة تحت غطاء واحد. وبما أنّها كانت قريبة

---

(١) راجع المراد من مصطلح «العنوان المشير» الذي جاء توضيحه في الصفحة ١٥ هامش ١، وسيأتي لاحقاً تفصيله.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ٢٢: ٧، تفسير ابن كثير ٣: ٤٩٣.

منهم ومجاورة لهم؛ لذلك استفسرت بأنّ الآية التي نزلت في هذه المجموعة تشملها أم لا.

احتمال وجيه في خروج أمّ سلمة عن مورد الآية

يستفاد من الروايتين المذكورتين أنّ خروج أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن مورد الآية لم يكن خروجاً تعبّدياً، بل التقدير الإلهي والمشيئة الربّانية اقتضت أن تكون هذه المرأة خارج الدار في وقت نزول الآية المباركة «آية التطهير»، وبالفعل كانت المرأة في ذلك الوقت خارج الدار أو مجاورة لها، الأمر الذي دعاها أن تبذل جميع الجهود وتتوسّل بكلّ شيء لعلّها تحظىٰ بهذا الشرف العظيم وتدخل ضمن عِداد المجتمعين تحت الكساء!

ولكن لا رادّ لقضاء الله، حيث لم تكن أُمّ سلمة رغم عظمتها مؤهلة لحمل هذا الوسام الفاخر؛ ولذا كان الأجدر بها أن تنسحب من هذا الميدان وتتوجّه إلى الدعاء والتوسّل، والشاهد الحي لهذا الاحتمال حديث جابر بن عبدالله الأنصاري، هذا الرجل العظيم الذي كان يحمل بعض أسرار القرآن والعترة، الذي يقول: «**نزلت هذه الآية على النبيّ** صلى الله عليه وآله **وليس في البيت إلّا فاطمة والحسن والحسين وعليّ** عليهم السلام: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فقال النبيّ** صلى الله عليه وآله: **اللّهم هؤلاء أهلي**»[(١)].

على هذا، فإنّ زوجة النبيّ الفاضلة ليست من **«أهل البيت»** عليهم السلام

(١) شواهد التنزيل ٢: ٢٩ ح٦٤٨، مجمع البيان ٨: ١٣٨، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٧.

«والعاقل تكفيه الإشارة»، إذ لم تكن في الدار التي نزلت فيها الآية، كما ظهرت في هذه الرواية أيضاً لفظة «البيت» كقرينة على أنّ المراد من أهل البيت هو بيت أمّ سلمة.

تسمية جديدة

لقد كان مفاد عبارة «أهل البيت» عند نزول الآية هو: «النازلون دار أمّ سلمة، المجتمعون في بيتها»، ولكن بمرور الزمان وتقادم الأيّام أخذت هذه العبارة لنفسها عنواناً تاريخياً.

فالحادثة في يومها الأوّل وقعت ـ باتفاق جميع العلماء المحقّقين من السنّة والشيعة ـ عندما اجتمع أربعة أشخاص بدعوة من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في دار زوجته الفاضلة، ولم تكن لائحة المدعوّين تتجاوز الأسماء المباركة، لـ«عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام»، ولم يكن من سبيل لتحديدهم وتعريفهم إلّا إطلاق هذه الأسماء النورانية عليهم، ولكن مع نزول الآية الشريفة بأمر البارئ عزّوجلّ وإرادته فقد خلع على هذه الثلّة المباركة أعظم فضيلة ومنقبة، وصارت الألسن تتناقل تسميتهم الجديدة **«أهل البيت»** عليهم السلام شيئاً فشيئاً حتّى تعيّن كعنوان أساسي لهم.

إنّ عبارة «أهل البيت» التي انبثقت كمعنى تاريخي من حادثة معيّنة، تحوّلت بمرور الزمان إلى عنوان ولافتة مفعمة بالفخر والفضيلة، وأصبحت متعيّنة في النبيّ وصهره وأبنائه، ومن مختصّات ألقابهم صلوات الله عليهم أجمعين. وما هذا وذاك إلّا لأهمّية الموقف والعظمة التي سجّلتها آية التطهير!

إنّ العبارة بحدّ ذاتها وبصرف النظر عن مدلولها المقترن بالمناسبة، لا تحمل أيّة فضيلة ولا تعني أيّ تفوّق وكمال ممّا تحمله كلمات من قبيل «عالم، عادل، شجاع»، ولكن مفاد آية التطهير المتدفّقة نوراً وفضيلة هو الذي خلع الفخر والعظمة على مصطلح «أهل البيت» وبلغ به قمّة تحكي معنى أكثر رقياً وسموّاً حتّى من تلك القمّة! وهذا هو السرّ في تحوّل الكلمة إلى عَلَمٍ لهذه الثلّة المباركة.

إذن، مع مرور الزمن، بدأت تحفّ بهذه العبارة حيثية أخرى، وصارت لها موضوعية مستمدّة من موضوع إثبات الفضيلة التي نطقت بها آية التطهير، وصار «أهل البيت» اللقب الخاص لصفوة الله وخاصّته. ولم تجر كلمة أهل البيت على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله كعنوان لأسرته قبل نزول آية التطهير في نطاق ما تحرّيناه، ولكن بعد نزولها فقد تكرّر إطلاقه صلى الله عليه وآله هذا اللقب «أهل البيت» عند إرادته ذكر عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وكأنّه صلى الله عليه وآله كان من البهجة والسرور بنزول آية التطهير بحيث كان يتحيّن الفرص ليستعيد ذكراها ويجدّد العهد بها، فيكرّر ذكر عبارة «أهل البيت»! أو كأنّه يريد إخراج هذا المسمّى وما يعنيه من فضيلة وفخر لأعزائه الأربعة من خلال تكرار النداء والتصريح بهذا اللقب السامي والوسام الربّاني، اللقب الذي يعادل الدنيا وما فيها، ومن خلال ترديد الآية التي تضع عترته صلى الله عليه وآله في قمّة الهرم الإنساني، حيث نشاهده صلى الله عليه وآله وسلم ومن حين نزول الآية ولمدّة ستّة أشهر أو أكثر، وحينما كان يخرج لأداء صلاة الصبح يجعل طريقه على دار

فاطمة عليها السلام وينادي بذلك النداء العظيم: «الصلاة يا أهل البيت»[١].

نعم، إنّ الادّعاء بأنَّ تقادم الزمن وحركة التاريخ لم يضفيا على أحد ـ ومن خلال آية التطهير ـ أيَّ فضيلة ولم يلبسا حُلّة الفخر والعزّ لأحدٍ مهما كان، ولم يظهرا له أيّ امتياز. نعم إنّ مثل هذا الادّعاء الواهي والتفكير المتشتّت والمبعثر بعيد عن روح الفضيلة وطلب الحقيقة، إضافة إلى أنّه بعيد عن منهج العلماء ومنطق المحقّقين، بل الواقع أنّ مرور الزمن وتعاقب الأيّام أزالا الستار عن الفضيلة التي أُريد لها أن تُحجب، وأبرزاها على أحسن صورها وأجمل حالاتها. كما أظهر كلمة «أهل البيت» كعنوان ذهبي يزيّن صفحة التاريخ البشري. لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله ومن خلال ترديده للآية المباركة يهدف إلىٰ تحقيق عدّة أغراض:

الأوّل: لكي لا يطمس هذا العنوان الذهبي والوسام الإلهي.

الثاني: صيانة لهذا العنوان من سطو الطامعين ولصوص السياسة الذين يحاولون أن يتبرقعوا ويتزيّنوا بهذا الوسام العظيم والشرف الرفيع والذي لم يكونوا أهلاً له.

الثالث: وليعلم الجاهلون بالحقائق القرآنية مَنْ هم أصحاب هذا العنوان الرفيع.

---

(١) ذكر العلّامة المجاهد عبد الحسين شرف الدين في رسالته «الكلمة الغرّاء» ص ٢٠ أنّه قد أخرج الإمام أحمد في ص٥٦٨ ح١٤٠٤٢ من الجزء الرابع من مسنده عن أنس بن مالك: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يمرّ بباب فاطمة ستّة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وعن أبي الحمراء سبعة أشهر (جامع البيان في تفسير القرآن ٢٢: ٦)، وفي رواية ذكرها النبهاني وغيره ثمانية أشهر (الدرّ المنثور ٥: ١٩٩).

الرابع: وليعلم العالم بأسره مَنْ هم أولئك القوم الذين نزلت في حقّهم آية التطهير ورفعتهم فوق ذرى المجد والفضيلة، ونزّهتهم وإلى الأبد عن كلّ دنس وجهل وشكّ؟

وليعلم الجميع مَنْ هم قادة الإسلام الحقيقيّون، وأيّ منزلة من منازل الفضيلة يرتقون؟

وليعلم أمثال عكرمة أنّ النظريات التي تفرزها نار العصبية والحقد والحسد لا تستطيع أن تحرف مسير الإنسانية الواعية والقلوب المؤمنة عن جادّة الحقّ والحقيقة.

وليعلم بعض المفسّرين الذين ابتلوا بداء العصبية، أنّ القرآن الكريم لا يخضع وبأيّ شكل من الأشكال لمثل تلك الأفكار والنظريات المنحرفة، وأنّ هذا الكتاب المقدّس حصر طريق الوصول إلى الفضيلة به لا بسواه، وأنّ تعاليمه الإلهية وقوانينه العالية لا تنسجم مع الأفكار المنبعثة عن الهوىٰ، والناجمة عن القناعات الشخصية والآراء الفردية.

وأخيراً لكي يتسلّح طالبو الحقيقة بالبرهان الساطع والدليل النيّر المستند إلى كلام سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله .

ثمرة التحقيق:

إنّ هذا الأسلوب المبتكر في تحقيق كلمة «أهل البيت» جديرٌ أن يصون البحث ويخرجه من حالة القال والقيل، وإنّ أخذ هذا الأسلوب بنظر الاعتبار واعتماد نتائجه يؤدّي إلى أن يصبح البحث والجدل في مفهوم «أهل البيت» لغواً لا فائدة فيه، وأن لا موضوع حينئذٍ للبحث عن سعة وضيق هذا المفهوم، من قبيل: ماذا تعني كلمة الأهل؟ ومَنْ هم

أهل البيت؟ وهل الآية تشمل نساء النبيّ أم لا؟ وكذلك التعصّب الفكري لحصر هذا المفهوم بنساء النبيّ ﷺ. كلّ ذلك لا يتعدّىٰ ـ بعد هذا التحقيق ـ عن كونه ادّعاءً فارغاً وأمراً عارياً عن الحقّ والحقيقة.

وإذا كان هناك بحث في كلمة «أهل البيت» فيمكن أن يدّعى أنّ مصطلح «أهل البيت» قرينة لـ «أهل بيت النبوّة» ممّا يجعل دخول النساء في نطاقه أمراً له وجه ما؛ لأنّ التداول العرفي للعبارة يشمل النساء أيضاً، ولكن التحقيق الدقيق حدّد كون «أهل البيت» في آية التطهير عنواناً مشيراً يقصد الخمسة المتميّزة المجتمعة في أحد بيوت النبيّ ﷺ في دار أُمّ سلمة، تماماً كما هي عبارة «أصحاب الكساء» في كونها عنواناً مشيراً إلى العظماء الخمسة عليهم السلام.

إذن فكما أنّ أحداً من العلماء والمحقّقين، وأيّاً من أهل الحلّ والعقد لم يبحث في مفهوم كلمة «الكساء»، وتسالموا على أنّ «أصحاب الكساء» عنوان يشير إلى المجتمعين تحت ذلك الغطاء، كذلك لا ينبغي البحث في مفهوم كلمة «أهل البيت»، إذ لا أهمّية للكلمة بنفسها، ولم تكن معنيّة في ذاتها، إذ لم يكن مفهوم «أهل البيت» هو موضوع آية التطهير، ولم يكن هذا المفهوم هو الذي نزلت الآية بعصمته وطهارته، حتّى نبحث ـ بعد ذلكِ ـ في شمولها لزوجات النبيّ من عدمه؟

فهذه العبارة لم تكن إلّا إشارة إلى الأشخاص الخمسة، وحتّى أُمّ سلمة التي كانت شاهداً نزيهاً على الحدث بقيت مستثناة وخارجة عن كساء القدس الذي شمل تلك النخبة والصفوة. ولعلّ الأمر يقتضي مزيداً من التوضيح.

مزيد من التوضيح

إنّ الأحكام والتبعات التي تُحمل على موضوع ما، تُحمَل تارةً بصورة قضيّة حقيقيّة وأُخرى على نحو القضيّة الخارجيّة، كما يصطلح في لغة أهل الفنّ والاختصاص. ففي القضايا الخارجية قد يحدّد موضوع القضية الأشخاص المعينين في الخارج صراحة، وقد يشير إليهم إشارة خاصّة تحت عنوان ما يرمز إليهم ويدلّ عليهم ولا يمكن أن يضمّ غيرهم.

على سبيل المثال قد يأخذ شكل القضية الصورة التالية: «يجب احترام العالم» هذه قضية حقيقية، هنا يجب البحث في مفهوم العالم، وعلى قدر ما يسع هذا المفهوم من مصاديق فيجب احترامهم، أي كلّ من يكون عالماً فيجب احترامه.

وقد يأخذ شكل القضية صورة أُخرى وتكون على هذا النحو: «احترم زيداً وعمرواً» هذه قضية خارجية، ومن يجب احترامه في هذه القضية هما زيد وعمرو، اللذان هما اسما عَلَم لشخصين معيّنين، وقد يقال في نفس هذه القضية الخارجية: «احترم الشخصين ذوي الجبّة الخضراء»، والقضية هنا جعلت «الجبّة الخضراء» عنواناً يشير إلى زيد وعمرو، ومن ينبغي احترامه في هذه القضية هما زيد وعمرو فقط، ولا يصحّ بحال أن تكون «الجبّة الخضراء» محور البحث في هذه القضية! بحيث يُبحث في مفهوم «الجبّة» و«الخضراء» وفي إضافة الجبّة إلى الخضراء، ثم يتمّ ـ في ضوء ذلك ـ استنتاج أيّ الناس يجب احترامهم؟!

إذن البحث في القضايا الحقيقية يتناول المفهوم ويتعرّض لطبيعة موضوع الحكم، ولكن في القضايا الخارجية ـ سواء في حالة التصريح

بتعيين الموضوع أو حالة الإشارة له ـ لا ينبغي البحث في مفهوم ما وقع موضوعاً للقضية، فيُبحث ـ وفق المثال ـ عمّن يجب احترامه، إذ من المسلّم أنّ الاحترام يجب أن لا يكون إلّا لزيد وعمرو، ولا يتجاوز الحكم عن موضوعه بأيّ نحو من الأنحاء. إنّ آية التطهير التي جعلت «أهل البيت» عليهم السلام مورد اهتمامها وطهّرتهم من الرجس والذنب طهارة أزلية ـ من قبيل المثال الثالث لقد انصب اهتمام الآية علىٰ عنوان «أهل البيت» عليهم السلام ولكن باعتباره عنواناً مشيراً إلى المجتمعين في دار أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ وكناية عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام.

كما أنّ الجبّة الخضراء في المثال عنوان مشير لزيد وعمرو. وإذا كان الاحترام في المثال الثالث منحصراً بزيد وعمرو، وغيرهم خارج عن هذا الحكم، كذلك في آية التطهير، فإنّ العناية الإلهية لا تشمل غير هؤلاء الخمسة، وغيرهم خارج عن حكم الآية. وعلىٰ هذا فلا شكّ ولا ترديد ولا يبحث في أنّ أهل البيت مَن هم؟ وما هي سعة وضيق هذا المفهوم؟ وأنّ التطهير يشمل أيّ الأفراد؟

نعم، كما أشرنا سابقاً أنّ الكلمة في حين نزول الآية كانت عنواناً مشيراً، ولكن بمرور الأيّام اصطبغت بصبغة التعيّن وأصبحت لقباً واسماً مشخّصاً لهؤلاء الخمسة عليهم السلام، بحيث كلّما ذكرت هذه الكلمة يتبادر إلى الذهن أصفياء الله تعالىٰ وهم الرسول الأكرم وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

كما أنّ مصطلح «خاصِف النعل» والذي استعمله الرسول صلى الله عليه وآله في بادئ الأمر كعنوان مشير إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك تحوّل إلى لقب خاصّ لأمير المؤمنين عليه السلام.

بعد هذا التحليل والتحقيق المبتكر من نوعه نستطيع القول: إنّا سحبنا البساط من تحت أقدام المتعصّبين والجهّال واللاأُباليين بحيث أصبحت أيديهم جذّاء وحجّتهم باطلة ودعواهم عارية عن الدليل.

وبعد ذلك لا حاجة إلى الادّعاء العاري عن الدليل والقول بأنّ أهل البيت اصطلاح قرآني خاصّ بالخمسة من **«أهل البيت»**عليهم‌السلام[1].

لأنّنا أثبتنا سابقاً أنّه لم يستعمل في هذه الكلمة أيّ اصطلاح. وما ورد فيها لا يخرج عن كونه عنواناً مشيراً إلى هذه الثلّة المختارة المجتمعة في بيت أمّ سلمة. والشاهد على أنّ كلمة «أهل البيت» لم تستعمل في القرآن كاصطلاح خاصّ بالخمسة من **«أهل البيت»**عليهم‌السلام هو ورود هذه الكلمة في قصّة إبراهيمعليه‌السلام وزوجته[2]، ولو كانت هذه الكلمة خاصّة بأهل البيت وأنّها استعملت بحقّهم كمصطلح، فلا معنى لاستعمالها في القرآن الكريم في حقّ أفراد آخرين غيرهم.

تساؤل:

إذا كانت كلمة «أهل البيت» خاصّة بهؤلاء الخمسة فقط فحينئذٍ يطرح السؤال التالي: ألم يكن سائر الأئمّة الأطهارعليهم‌السلام من أهل البيت، وأنّ آية التطهير تشملهم بالعناية والفضيلة؟

إنّ الإجابة عن هذا التساؤل تظهر بين مطاوي كلمات أئمّة أهل البيتعليهم‌السلام:

فما نُقِلَ عن النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله عن طريق أبي سعيد الخدري حيث قالصلى‌الله‌عليه‌وآله:

---

(١) كما ذهب إلى ذلك السيّد الطباطبائي في تفسير الميزان ١٦: ٣١٢.

(٢) في ص١٢٨.

«نزلت هذه الآية فيّ وفي عليّ وحسن وحسين وفاطمة»[١].

أو ما ورد عنه ﷺ بعد نزول الآية: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي، فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[٢].

وهذان النوعان من التعبير ـ المنقولان عن النبيّ ﷺ ـ يوحيان أن عنوان «أهل البيت» في الآية الشريفة يشير إلى الخمسة أصحاب الكساء على نحو الحصر، وقد ذهب الإمام الصادق عليه السلام إلى هذا الرأي (اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة) معقّباً أنّ ربط بقيّة الأئمّة الأطهار عليهم السلام بآية التطهير وشمولهم بمدلولها وما تخلعه على مخاطبيها من العصمة والطهر يتمّ من خلال دخولهم عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[٣].

إنّ نطاق آية التطهير ـ بناءً على قول الصادق عليه السلام ـ لا يتجاوز الخمسة الذين نزلت في شأنهم، وإذا كانت عبارة «أهل البيت» مطلقة ـ باصطلاح أهل الفنّ ـ بحيث تشمل جميع الأئمّة عليهم السلام فما كان الإمام الصادق عليه السلام ليستدلّ بآية ﴿أُولوا الأرحام...﴾ ويلجأ إلى الربط بين الآيتين ليخلص إلى نتيجة عصمة جميع الأئمّة وطهارتهم، والقول: «نحن تأويل آية التطهير»[٤] إذن فـ «أهل البيت» هم أولئك النفر

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٢: ٥، مجمع البيان ٨: ١٣٨، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٧، الدرّ المنثور ٥: ١٩٨.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٢: ٦، مجمع البيان ٨: ١٣٨، تفسير نور الثقلين ٤ : ٢٧٦ كما وردت بهذا المضمون روايات أخرى، راجع نفس المصدر.

(٣) الأنفال: ٧٥.

(٤) إذ يقول (في رواية عبد الرحمن بن كثير): «نزلت هذه الآية في النبيّ وأمير المؤمنين ←

تحت الكساء لا غير، وإنّما يدخل بقيّة الأئمّة عليهم السلام في مؤدى الآية عن طريق تأويلها.

وبعبارة أوضح: إنّ آية التطهير تشمل جميع الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ولكن ليس بواسطة لفظة «أهل البيت» الواردة في الآية، بل للشرح الذي قدّمته الآية الثانية لآية التطهير، هكذا قضى الله أن يكون للتأويل شأن واعتبار التنزيل، ويكون لمن أُوّلت الآية بهم شأن ومنزلة من نزلت فيهم.

وجه احتجاج بقيّة الأئمّة عليهم السلام بالآية

إذا صحّ أنّ آية التطهير لم تنزل في جميع الأئمّة عليهم السلام، فلماذا كانوا يستدلّون بها في مواقع المخاصمة والاحتجاج على إمامتهم وعصمتهم وأولوية تقديمهم على غيرهم؟

الجواب:

المواقع المشار إليها جاءت في صنفين من الروايات:

الأوّل: ما استدلّ به أمير المؤمنين أو الإمام الحسن أو الحسين عليهم السلام إثباتاً لأحقّيتهم وتقدّمهم على غيرهم وفق مدلول آية التطهير، وهذه

← والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فلمّا قبض الله عزّوجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله كان أمير المؤمنين ثمّ الحسن ثمّ الحسين عليهما السلام، ثمّ وقع تأويل هذه الآية ﴿وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُم أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ وكان علي بن الحسين عليهما السلام، ثم جرت في الأئمّة من ولده الأوصياء عليهم السلام، فطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله عزّوجلّ» (علل الشرائع: ٢٠٥ ب١٥٦ ح٢، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٣).

الطائفة من الروايات لا تتعارض مع ما قرّرناه آنفاً، إذ إنّهم عليهم السلام ممّن شملتهم الآية تنزيلاً لا تأويلاً.

الثاني: ما قاله بقيّة الأئمّة عليهم السلام في مقام الاستدلال والاحتجاج بالآية الشريفة، وفي هذه الطائفة نلحظ هاتين الروايتين:

١ ـ عن علي بن الحسين عليه السلام، حديث طويل يقول فيه لبعض الشاميين: **فهل تجد لنا في سورة الأحزاب حقّاً خاصّاً دون المسلمين؟ فقال: لا، قال علي بن الحسين عليه السلام: أما قرأت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**(١).

٢ ـ رواية الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال في تفسير الآية: «**يعني الأئمّة عليهم السلام وولايتهم، من دخل فيها دخل في بيت النبيّ صلى الله عليه وآله**»(٢).

إنّ آية التطهير قد أولت الأئمّة عليهم السلام عناية خاصّة وجعلتهم ولاة للناس كافّة، وكلّ من دخل تحت لوائهم يكون من خواصّ بيت النبوّة.

والمتلخّص من كلام الإمام الصادق عليه السلام هو أنّ التبعية والاقتداء بهدى «**أهل البيت**» عليهم السلام يورثا الوحدة والاتحاد والانصهار كما جاء في القرآن الكريم في قوله سبحانه: **﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي...﴾**(٣) وما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّ سلمان رضي الله عنه: «**سلمان منّا أهل البيت**»(٤)

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٣ ـ ٣٤، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٥.

(٢) الكافي ١: ٤٢٣ ح ٥٤، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٣.

(٣) إبراهيم: ٣٦.

(٤) اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي: ١٥ الرقم ٣٣، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦٩١ ح ٦٥٣٩ و ٦٥٤١، الاحتجاج ١: ٣٨٧، بحار الأنوار ١٠: ١٢٣ ح ٢.

علماً أنّ سلمان لم يكن من أهل البيت حقيقة. فعلىٰ هذا يكون الاقتداء وقبول ولاية «أهل البيت»عليهم السلام بمثابة المصنع الذي يـصهر الجـميع في بوتقة واحدة. ولكنّ الروايتين المذكورتين ليسا في مقام بيان أنّ عنوان «أهل البيت» شامل لجميع الأئمّةعليهم السلام ، وإنّما هما في مقام بيان أنّ (آية التطهير) تثبت الولاية والتقدّم لباقي الأئمّةعليهم السلام أيضاً.

ويمكن إثبات ذلك والبرهنة عليه ـكما جاء في رواية ابن كثير عن الإمام الصادقعليه السلام ـ من خلال الاستناد إلى آية ﴿أُوْلُوا الأَرْحَامِ﴾، بل يمكن الجمع من خلال هذا الطريق أيضاً بين هذه الروايـات المـوسّعة وبين ما ورد عن الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله من الروايات الحـاصرة لعـنوان «أهل البيت» في الأفراد الخمسة عليهم السلام فقط. ويكون هذا الجمع عقلائياً وقابلاً للتصديق.

وإذا أردنا أن نعتمد الأسلوب الصناعي (الفني) نقول: إنّ الرواية التي رواها ابن كثير عن الإمام الصـادقعليه السلام تـعتبر شـاهد جمـع بـين طائفتين من الروايات التي يظهر لأوّل وهلة أنّها مـتعارضة، الطـائفة الأُولى الروايات الدالّة على الانحصار بالخمسة، والروايات المـوسّعة، ويمكن القول ـ كما هو مفاد حديث ابن كثير ـ بأنّه من خـلال نسـبة التأويل إلى التنزيل ومن خلال هذه النسبة والإضافة يدخل سائر الأئمّة تحت عنوان «أهل البيت» الوارد في الآية.

وعلى هذا الأساس: فإنّه ومـن خـلال النـظر إلى مـا ورد عـن الرسولصلى الله عليه وآله من حصر عـنوان «أهـل البـيت» بـالخمسةعليهم السلام ، ومـن ملاحظة ما ورد عن الأئمّةعليهم السلام من أنّ الآية نزلت بحقّ المجتمعين في بيت أُمّ سلمة ـرضي الله عنهاـ، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى الروايات التي

وردت عنهم عليهم السلام والتي اعتمدوا فيها على «آية التطهير» لإثبات الولاية لهم عليهم السلام وتأويلهم لآية ﴿أُوْلُوا الأَرْحَامِ﴾ من جهة أُخرى، من خلال ذلك كلّه لابدّ من الإذعان بأنّ عنوان «أهل البيت» مثل عنوان «آل العباء» و«أصحاب الكساء» عنوان منحصر، ولكنّ الآية لم تهمل سائر الأئمّة عليهم السلام، وإنّما شملتهم بالعناية والقداسة والطهارة.

ولو قلنا: إنّ كلمة «أهل البيت» هذا العنوان الذي ظلّ طول التاريخ مشيراً إلى المجتمعين في دار أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنّه يشمل سائر الأئمّة عليهم السلام اعتماداً علىٰ ما روي عنهم، وتأويل الآية لم يكن ادّعاؤنا جُزافاً وبدون دليل، بل هناك روايات تدعم ما ندّعيه، حيث نرى أنّ الرواة من أصحاب الأئمّة عليهم السلام كانوا يخاطبونهم عليهم السلام بهذا العنوان «أهل البيت».

بل يمكن القول: إنّه ينبغي النظر إلى عنوان «أهل البيت» من بُعدين:

الأوّل: مناسبة وشأن نزول الآية، ومن هذا البعد فإنّ أهل البيت هم أصحاب الكساء عليهم السلام فقط.

الثاني: النظر إلى الآية بلحاظ الحكم الذي تثبته، أي الطهارة والقداسة وإذهاب الرجس، ولما كان سائر أئمّة الهدى عليهم السلام متساوين مع الخمسة أصحاب الكساء في مفاد آية التطهير، فإنّ العنوان منطبق عليهم ويجب القول إنّهم من أهل البيت أيضاً.

وبعبارة أُخرى: إنّ عنوان «أهل البيت» لا يحمل في حدّ ذاته أيّ اعتبار خاصّ أو قيمة متميّزة لآل الرسول عليهم السلام، بل القيمة والاعتبار هي للكمالات والصفات التي خلعتها آية التطهير على من نزلت في

شأنهم، ومن شملتهم ـ كما ثبت في محلّه ـ من أئمّة الهدى عليهم السلام، ولمّا كانت كلمة «أهل البيت» عنواناً للتفوّق والكمال، و اسماً حاكياً عن الطهر والقداسة والفضيلة، فإنّ كلّ من يتحلّى ويتّصل بهذا العالم فإنّه ينسب إلى أهل البيت، ولعلّ هذا هو الوجه في قول النبيّ صلى الله عليه وآله ـ المتقدّم ـ: «سلمان منّا أهل البيت»[1]، مع أنّ البون بين سلمان والمقام الأرفع للإمام الصادق عليه السلام شاسع جدّاً.

جولة في النصوص

قلنا: إنّ عبارة «أهل البيت» إنّما عُرفت بعد نزول آية التطهير، وأنّه لم يجر تداولها واستعمالها في أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام قبل ذلك ـ على قدر ما توصّلنا إليه من البحث والاستقصاء ـ.

نعم، كانت عبارة «أهل بيتي» كثيراً ما تتكرّر على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله، ولكن تعبير «أهل البيت» لم يجر على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا في أواخر عمره الشريف ـ ووفقاً لاستنباطنا السابق فإنّ نزول الآية كان في أواخر حياة النبيّ صلى الله عليه وآله ـ وهذا ممّا يدلّ على أنّ هذا التعبير العظيم شاع بعد نزول الآية، حيث سرى شيئاً فشيئاً حتّى صار في إطلاقات واستعمالات بقيّة أئمّة الهدى عليهم السلام.

استعمل أمير المؤمنين عليه السلام عبارة «أهل البيت» وفقاً لما جاء في «نهج البلاغة» في أربعة مواضع:

١ ـ في الخطبة الثالثة والتسعين، في معرض بيانه لفتنة تولّي بني

(١) تقدّم في ص١٤٢.

أُميّة زعامتهم المشؤومة، قال من جملة ما قال: «نحن أهل البيت منها بمنجاةٍ، ولسنا فيها بدُعاة».

٢ ـ في الخطبة المائة والعشرين: «وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر».

٣ ـ في الخطبة الرابعة والعشرين بعد المائتين: «أصِلة أم زكاة أم صدقة، فذلك محرّم علينا أهل البيت».

٤ ـ وفي الحكمة الثانية عشرة بعد المائة يقول عليه السلام: «من أحبّنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً».

وخطب الحسن السبط عليه السلام عندما ولي الخلافة، وكان من جملة كلامه: «وأنّا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس...»[1]، وفي خطبة للحسين عليه السلام في مكّة، قال: «رضا الله رضانا أهلَ البيت»[2].

■ ▣ ■

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ٤٥٠.

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف للسيّد ابن طاووس: ١٢٦.

نظرة في عطاء آية التطهير

إلى هنا جرى البحث مُسهباً وفق متطلّبات التحقيق في آية التطهير كلمة بكلمة، وما تناولناه من نكات تاريخية دقيقة، وهكذا المسيرة التي طواها عنوان «أهل البيت» على مدى تاريخ الإسلام، وكانت الخلاصة الموجزة:

إنّ الآية تختصّ بأهل البيت عليهم السلام، وأهل البيت هم أصحاب الكساء، بمعنى أنّ شأن نزول الآية هم النبيّ الأكرم وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأنّ بقيّة الأئمّة الأطهار مشمولون بخصائص هذه الآية عن طريق آخر.

وإنّ الإرادة التكوينية للباريء عزّوجلّ قضت أن يكون هناك فاصل أبدي بين الأرجاس وأهل بيت النبوّة عليهم السلام.

وإنّ هذا اللطف والتوفيق الإلهي الكبير جاء استجابة لطاعتهم وإخلاصهم واستحقاقهم.

ويبلغ البحث هنا موقع دراسة مفاد مجموع الآية لنحدّد عطاءها لأهل البيت وسائر أئمّة الهدى عليهم السلام، الذين هم بالنتيجة من أهل البيت عليهم السلام، ماذا تريد الآية أن تهبهم وتخلع عليهم؟

إنّ الإرادة الأزلية للباريء تعالى التي قضت الفصل بين الأئمّة الأطهار وجميع الذنوب والأرجاس، وحكمت لهم بالمزيد من الطهارة

والنزاهة، جعلت ذلك للنبيّ الأعظم وابنته العزيزة والأئمّة الإثني عشر ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ دون سائر الخلق، ولمّا كان المراد لايتخلّف عن الإرادة الإلهية فهو متحقّق لا محالة، فمن المؤكّد أنّك ستجد هذه الصفوة الطاهرة تتمتّع بروح عالية ونفس منيعة وصدر رحب يتّسع للهموم والمشكلات، وقلب متّقد وضّاء مفعم بالعلم، خال من موانع وحواجز إدراك الحقائق وفهم القرآن.

إنّهم بعيدو المدى، مطّلعون على خفايا الحوادث، واقفون على أسرار الدين ورموز القرآن وإشاراته، لا يقربون الفواحش ولا يدنون الأرجاس من حقد وبخل وحسد وجهل وشكّ وخرافة، لا يعتريهم شك ولا يأخذهم ضعف ولا وهن، إذ يتمتّعون بروح عالية وعظمة تنأى بهم عن القبائح والذنوب، بل تأبى مجرّد توهّم ذلك وقصده! إنّها قلوب طاهرة مطمئنّة لا تخفق إلّا بحبّ الله ولا يخترق سماءها ذرّة من الهوى وحبّ الشهوات، إنّ الأئمّة عليهم السلام يمثّلون القمّة في التسليم لله والغاية في الإخلاص له، وفي رحاب النبيّ والأئمّة عليهم السلام لا تجد للحقد والبخل والحسد محلّاً، بل ما هي إلّا الرحمة والرأفة بالناس، وكرم وعطاء لا يقف عند حدود، يهب البشرية الخير وهو يرسم لها طريق السعادة، ويحدّد لها ما يُنجيها، ويحقّق لها الخلاص بما عرفوه ووقفوا عليه من علوم القرآن وأسراره، وما استلهموه من مدرسة الوحي والتنزيل، فهم المعدّون لهداية الناس وإرشادهم وتوجيههم وقيادتهم لسعادة الدارين.

إنّ الرسول الأكرم وآله الأطهار عليهم السلام يمتلكون روحيات تحلّق فوق القداسة والطهر، وهكذا عيّنات ونماذج طاهرة مطهّرة هي التي يمكنها أن تأخذ بيد المجتمع وتقوده نحو الطهارة والسعادة. إنّهم من الطهارة

بمكان لا يدنوه ذنب ولا يقربه رجس، فلا تعلق بأذيالهم ذرّة غبار من معصية، ولا تؤثر على أرواحهم النزيهة، ولا شكّ في أنّ أمثال هؤلاء الرجال يسيرون بالأُمّة إلى الطهارة الفكرية والعملية.

إنّها مشيئة الربّ وإرادته جلّ وعلا، التي قضت أن لا يعتلي عرش الفضيلة إلّا «أهل البيت» عليهم السلام، ولا يتربّع على قمّة المجد والطهارة غيرهم، فيتمتّعون بالقلوب السليمة، التي تولّى الله رياضتها والأنفس العالية التي تنعكس فيها الحقائق الربانية، ولا يعتريها شكّ ولا يؤثر فيها حدث مهما كبر وعظم.

إنّهم العالمون بجميع شرائع وأحكام الدين، الواقفون على رموز التكوين، والمكنون من أسرار القرآن العظيم، لا لبس في حياتهم ولا إبهام ولا جهل، ولم يفسحوا الطريق لأدنى شكّ أو ريبة لتحول بينهم وبين دوام إخلاصهم وتوجّههم لباريهم الحيّ القيّوم.

وهؤلاء هم «أهل البيت» عليهم السلام فقط، الذين شاء الله أن يفصل بينهم وبين الذنوب والمعاصي والرذائل و وساوس الشيطان بمساحة شاسعة لا تقطعها ملايين الفراسخ، وهذا الفاصل هو الذي أمّن حصانتهم وحصّل لهم العصمة من الخطأ والزلل، فهم لا يزلّون كيلا يزلّ المجتمع، ولا يتزلزلون أمام الدنيا وزخرفها كيلا تتزلزل أمّة بكاملها.

هذا هو مفاد آية التطهير الكريمة، الذي جاءت به إرادة الحصر، وإطلاق كلمة «الرجس»، ومعنى تعلّق إرادة الحقّ تعالى بإذهاب الرجس عنهم، وتأكيد الطهارة، على صورة جملة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

من هنا يتّضح السرّ وتظهر الحكمة الإلهية جليّة في هذه الإفاضات الخاصّة، التي جعلت هذه الثلّة المباركة تسبح فوق قمم الفضيلة

والطهارة، وما هي إلّا خطّة وضعت لتحقيق نتائج غاية في الأهمّية جعلت أهل البيت يبدون على هذا القدر من الجمال والكمال، إنّها مسألة زعامة المسلمين وقضية قيادة الأمّة الإسلامية. فما خلعه البارئ عزّوجلّ على «أهل البيت»عليهم السلام من الطهارة والعصمة، وما سلّحهم به من سعة الصدر وسلامة النفس وعظمة الروح، وزوّدهم به من علم بالواقع وبصيرة ثاقبة سيعود بالنفع على الأمّة أوّلاً وآخراً، وهو من أتمّ مظاهر لطف الله بهذه الأمّة المرحومة، إذ منَّ الله بهم علينا فجعلهم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمُه﴾[1]، فيغترف المسلمون من معين علومهم الزلال، وينهلون من فيض عدالتهم وكرمهم وطهارتهم، فيسري شعاعهم ويعمّ الأمّة فترقى في طريق الطهارة والتقى، وتسلك درب السعادة الأبدية وتحقّق لنفسها النجاة في الدارين. فتربية «أهل البيت»عليهم السلام تربية للأمّة وعطاء الله سبحانه وتعالى الذي اختصّهم به هو عطاء سيشمل الأمّة ويعمّها خيره إن هي أحسنت وامتثلت أمر باريها باتباع سبيلهم، وبقيت مسؤولية الأمّة في الاتباع واستثمار هذا اللطف والعناية الإلهية التي وضعت هذه الخطّة لقيادة الأمّة وتحقيق خلاصها.

إثبات ولاية أهل البيت عليهم السلام بالآية

انّ آية التطهير تثبت ولاية «أهل البيت»عليهم السلام وتقرّر زعامتهم، بل

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٥ قطعة من ح١، بحار الأنوار ١٠٢: ١٣٠ ح٤، والآية في سورة النور آية ٣٦.

هي بصدد طرح قضية الإمامة والزعامة ولفت الأنظار إليها، وإلّا لما كان لإرادة الباري عزّوجلّ أن تصبّ كلّ هذا الاهتمام وتولّي كلّ هذه العناية، ولتوضيح هذا المطلب الجوهري نشير إلى أمرين:

الأوّل: رأينا كيف أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استند إلى آية التطهير في إثبات إمامته وحقّه وصلاحيته في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله في قصّة السقيفة والشورى. وأنّ الإمام الحسن عليه السلام طرح الآية ولفت الأنظار إليها في أوّل مؤتمر عام عقد لإعلان خلافته، أمّا الإمام الصادق عليه السلام فقد قال بشأن آية التطهير: «**نزلت هذه الآية في النبيّ وأمير المؤمنين والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فلمّا قبضَ الله عزّوجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله كان أمير المؤمنين ثم الحسن ثم الحسين عليهم السلام ... فطاعتهم طاعة الله عزّوجلّ ومعصيتهم معصية الله**»[1]. وقد قرأنا في رواية الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام[2] أنّه تكلّم في تفسير الآية فتطرّق إلى الإمامة والولاية.

ويستفاد من مجموع كلام الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الصادق عليهم السلام أنّ آية التطهير إنّما كانت في معرض بيان حكم الإمامة والولاية، وأنّها تثبته لأهل هذا البيت.

الثاني: لقد أوضحنا فيما مضى من البحث أنّ مجموع الآيات التي تحدّثت عن نساء النبيّ صلى الله عليه وآله رسمت المنهج الذي يجب عليهنّ أن يعملن

(١) علل الشرائع: ٢٠٥ ب ١٥٦ ح٢، تفسير نور الثقلين ٤: ٢٧٣ رواية عبد الرحمن بن كثير.

(٢) تقدّمت في ص١٤٢.

به، وأنّ آية التطهير التي تخلّلت تلك الآيات في مقام التدوين وضّحت موقع «أهل البيت»عليهم السلام، وهذه الصيغة الصريحة في البلاغ تعكس أهمّية الموقف وخطورته، فمستقبل الإسلام يفرض أن تعلم زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله بتكاليفهنّ ويعملن ويتقيّدن بها، وفي المقابل أن يعلم عموم المسلمين موقع «أهل البيت»عليهم السلام وخصوصيّتهم والدور المناط بهم.

إذن هذه الآيات كانت تلحظ وتضع الخطة لمستقبل الإسلام، وهي تحسم أمر عائلة الرسول صلى الله عليه وآله ككلّ في موقع واحد، فقسم عليه أن يبقى في الخدر وراء الحجاب، بعيداً عن شؤون السياسة والدولة، وثلّة خاصّة أُنيط بها حفظ الإسلام وقيادته وهداية المسلمين وإمامتهم، وقد أولاهم البارئ المدبّر عزّوجلّ المنزلة الرفيعة وبلغ بهم حدّاً محيّراً وعجيباً من الطهارة والعصمة في سبيل أن يبقى الدين منزّهاً عن الزلل والخطأ، بعيداً عن التلوّث والانحراف، الذي قد يلحقه به أدعياء الإمامة ومغتصبو الخلافة من عبدة الشهوات.

وقد زوّدهم سبحانه وتعالى بصدور رحبة وهمم عالية وقلوب منيعة، ليتمكّنوا من الاستقامة والصمود أمام ما ينتظرهم من حوادث مرعبة، ومقاومة الأحداث القاهرة التي ستأتي على الإسلام والمسلمين، فلا ينثنوا عن مسؤوليّتهم ولا يستسلموا. لقد حباهم الله علماً جمّاً وبصيرة نافذة ليمكّنهم من الدفاع عن حياض دينه والنهوض باحتجاجات ومخاصمات الأعداء ويردّوهم على أعقابهم خائبين مفحَمين، وبما يمكّنهم من وضع منهج ديني متوافق مع مبادئ القرآن الكريم، وبوقوفهم على أسرار الوحي يمكنهم أن يحيلوا كلّ عسير من مشاكل الأُمّة سهلاً يسيراً، ويخرجوا الناس من متاهات الحيرة

والأوهام إلى نور الحقّ والصواب، ويقدّرهم الله سبحانه بما أطلعهم عليه من غيبه من معالجة الحوادث والقضايا برؤية عميقة وبصيرة نافذة تحيط بالحيثيّات الظاهرة والخفيّة؛ ليأمن الناس ويسكنوا إلى قيادة واعية تحقّق لهم الأمن والاستقلال عن السقوط في مهاوي الغرباء والأجانب، والسلامة والحفظ من ويلات الجهل وعواقب الانحراف، وينهلوا من العطاء المتجدّد الذي يتجلّى في كلّ عصر وفق مقتضيات الزمان بما لا يمسّ أصالة الدين ونقاء الإسلام المبين. لقد نزّههم الله وطهّرهم من جميع الآفات النفسية والأغراض والأهواء، وحصّنهم من جميع الأمراض الروحية والأخلاقية حتّى لا يسري شيء من هذه الأخطار إلى الأمّة ويجرّها إلى الفساد فيضمحلّ الإسلام وتزول الشريعة، وحتّى لا يتحوّل قادة المسلمين وزعماء الدين إلى طغاة متعطشين للحكم والتسلّط على الرقاب، تحدوهم الشهوات وتدفعهم الملذّات لنيل السلطة بالبطش وملئ الزنزانات بالمظلومين.

نعم، لم يردها الله دكتاتورية منمّقة بأسماء رنّانة واستبداداً يستمدّ ظلمه وطغيانه من عناوين مزخرفة، فتنصب المشانق وتفتح السجون ويُسلب الناس الحرية الفكرية التي هي من أوّليات الحياة الكريمة. فمنح القادة الحقيقيّين العصمة وطهّر قلوبهم من الغلّ والحسد والحرص ومن جميع بواعث الظلم ودوافع الاستبداد.

ملاحظة

يجب أن نُعيد إلى الأذهان أن ما تناولناه بالبحث حول دور النساء إنّما يتعلّق بزوجات النبيّ ﷺ على الخصوص، وذلك في الآيات المعيّنة

التي صدّرنا بها البحث، فقلنا: إنّها ناظرة إلى دور نساء النبيّ صلى الله عليه وآله والمنهج الذي عليهنّ اتّباعه من لزوم الخدر والحجاب، والبقاء في البيت بعيداً عن القضايا السياسية والاجتماعية، وهكذا عرضنا لخصوصيّتهن بلحاظ الأجر المضاعف الذي ينتظر المحسنة منهنّ، والعذاب والعقوبة المضاعفة التي أُعدّت للمسيئة منهنّ ممّا صرّحت به الآية: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1].

من هنا فإنّ البحث تعلّق بزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله دون غيرهنّ من النساء، أمّا بخصوص دور المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية الإسلامية فهذا ما لم نتعرّض له، وهو بحث مستقلّ خارج عن نطاق الكتاب ولا تتحمّله هذه العجالة.

ماذا عن الزهراء عليها السلام، ودورها وموقعها ؟

وهنا نختم البحث بسؤال يطرح نفسه: إنّ آية التطهير تحدّثت عن خمسة أشخاص من أولياء الله، اتّخذهم الله وأعدّهم وهيّأهم بالعلم والعصمة والتطهير ورشّحهم لمقام قيادة المسلمين وإمامتهم، وإنّ موضوع بحث الآية هم «أهل البيت» عليهم السلام، وهم خمسة أشخاص، والسيّدة الزهراء صلوات الله عليها وحيدة أبيها وعزيزته هي من هؤلاء الخمسة، فهل كان لها أن تشارك في أعمال الدولة الإسلامية وشؤون إمامة المسلمين وأن تتولّى زعامتهم؟

(١) الأحزاب: ٣٢.

الجواب :

يبدو أنّ السؤال ما كان ليُثار لو أنّ التدقيق التامّ كان قد أُعمل في البحوث السابقة، إنّ الدراسة لم تطرح ولم تدّع وجود دلالة مطابقية[١] بين آية التطهير ولزوم القيادة والزعامة لهذه الثلّة المباركة عليهم السلام، بل إنّنا فهمنا من معاني تعابير: الإرادة، الرجس، التطهير، التي وردت في الآية، أنّ هناك مشيئة ربّانية في انبعاث وظهور نماذج بشرية خاصّة تتمتّع بمواصفات وخصائص متميّزة، كالعصمة والطهارة وسعة الصدر والعلم، فصل الله بينهم وبين الأرجاس والرذائل، ثم حلّلنا القضيّة على أنّ إرادة البارئ لا تتعلّق بمثل هذا الأمر جزافاً، فلابدّ من حكمة ومصلحة عُليا، ورأينا أنّ ذلك لحفظ الإسلام من التحريف والتزييف وصَون تعاليمه وأحكامه عن التشويه واللبس، وأنّ ذلك لا يكون إلّا عن طريق أُناس يتمتّعون بصفات ومواهب خاصّة، يجب أن يكون لهم مقام الصدارة وتُسلّم إليهم مقاليد الزعامة لتأدية هذا الدور.

ولم نقل على أيّ نحو: إنّ آية التطهير من أدلّة إمامة «أهل البيت» عليهم السلام بالمفهوم المطابقي حتّى يكون كلّ فرد ممّن ذُكر في الآية مُرشحاً للإمامة ومندوباً للزعامة في مستقبل الإسلام، بل كانت الدعوى أنّ مفاد الآية الكريمة يتناسب ومنصب الزعامة والإمامة، من

---

(١) الدلالة المطابقية أو التطابقية: أن يدلّ اللفظ أو العنوان على تمام معناه الموضوع له ويطابقه، كدلالة لفظ الكتاب على تمام معناه، فيدخل فيه جميع أوراقه وما فيه من نقوش وغلاف. وليس الغرض في البحث أنّ آية التطهير لها دلالة على نحو المطابقة مع موضوع الإمامة....

باب أنّ تحلّي تلك الثلّة بكلّ هذه الكمالات لا يصحّ أن يخلو من حكمة وعلّة ترتبط بالإسلام ومسيرته ومستقبله، ودون أن تنعكس هذه الهبات والعطايا الإلهية الجزيلة لـ «أهل البيت»عليهم‌السلام على عموم المسلمين وعلى المجتمع الإسلامي ككلّ، فكان ممّا استفدناه أنّ مسألة الإمامة والقيادة أحد معطيات هذه الآية الكريمة.

ولكن هل يفترض في عائلة كاملة طهّرت ومُلئت علماً وفضيلةً في سبيل خدمة الدين وحفظ الإسلام، أن يكون جميع أفراد هذه الأُسرة زعماء وقادة، أم أنّ الفرض الصحيح في هكذا حالة أن تكون الأُسرة ككلّ مشتركة في حفظ الدين ومصير الإسلام، مع انفراد كلّ عضو بواجب مستقلّ يتناسب ويُلائم وضعه وحاله؟

إذن علينا أن نتبيّن الدور والمسؤولية الملقاة على عاتق كلّ من هؤلاء الخمسةعليهم‌السلام .

إذا كان البارئ تعالى يريد لكلّ فرد من هذه الأُسرة العظيمة المكوّنة من زوجين وابنين ـ أمّا النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله فقد كان يقضي الأيّام الأخيرة لعهده وزعامته، إذ نزلت آية التطهير في أواخر حياته الشريفةصلى‌الله‌عليه‌وآله ـ دوراً معيّناً وألقى على عاتقهم مسؤولية خاصّة لحفظ الدين، ووهبهم تلك الصفات والخصائص في سبيل تنفيذها وتمكينهم من حسن أدائها، فإنّ دور الأب والإبنين تحدّد واتّضح: القيادة والإمامة، كلّ في عصره وزمانه، وقد ذكروا هذا الأمر وأشاروا إليه بأنفسهم في أحاديثهم استدلالاً بالآية الشريفة، وبقيت مهمّة هذه المرأة العظيمة والدور الملقى على عاتقها.

إنّ دور الزهراءعليها‌السلام قد أفرزته وصنّفته الآية الكريمة أيضاً، فتوزيع

الأدوار وتقسيم المسؤوليات الذي يجعل من الزوج والأبناء أئمّة وقادة للدين يفرض على الزوجة والأمّ دوراً متناسباً مع هذا الوضع، فالأسرة التي يجب أن يكون ربّها زعيماً والأولاد كذلك كلّ في عهده، يجب أن تتحدّد مسؤولية سيّدة تلك الأُسرة وربّة ذلك البيت ـ التي تتمتّع بنفس الفضائل والكمالات ـ بإعداد أبنائها للدور المنتظر، والوقوف خلف الزوج والتعاون معه وتوفير الأجواء الروحية والنفسية التي يتطلّبها النهوض بذلك الدور.

فاطمة هي أُمّ أئمّة الهدى الذين هم الآيات الربانية العظمى التي تتحلّى بأعلى الكمالات البشرية وتتمتّع بقمّة المعنويات الإلهية، والمفترض أن يحافظوا على هذه المراتب إلى الأبد، فلابدّ من درع واقية تحافظ عليهم وتشكّل الحماية الطبيعية لهم، فكانت أُمّهم الزهراء صلوات الله عليها.

فاطمة عليها السلام هي زوج عليّ عليه السلام، زعيم الإسلام وإمام المسلمين الأوّل، ولابدّ من سنخيّة وتقارب في الرتبة المعنوية والروحية بين الزوجين؛ لتكون الاسرة ناجحة وتتمكّن من العيش السليم وأداء الدور الربّاني والمسؤولية الرسالية على أكمل وجه، من هنا كانت الطهارة والعصمة وما خلع الله على الزهراء عليها السلام من كمال، ضرورة طبيعية لنصرة الدين وتحقيق أهداف الخلافة الإلهية الممتدّة في ذراريها[1].

---

(١) من الواضح أن الكاتب ليس في معرض بيان مقامات أهل البيت عليهم السلام والبحث في مراتبهم، وأنّه يتناول الأمر على طريقة الأصوليين في القول بحجّية أقوال المعصومين عليهم السلام، وقد دخله مدخل الكلاميين في ضرورة العصمة للحجّة، وعموماً، ←

→ فهو يسعى لطرح يوفر معالجة عقلية للقضية، أمّا ما يتعلّق بمقامات هذه الأنوار وحقيقة مراتبهم فتجدها في روايات «أهل البيت»ﷺ التي تخلو من إشارة للتعليل المذكور هنا، أو تعليق حصول الزهراءﷺ، وهكذا بقيّة الأئمّةﷺ على المقامات المعنوية لرسالة سينهضون بها، أو دور سيُناط بهم، بل هي من متعلّقات ذواتهم وضرورات وجودهم.

وللتبرّك بكلامهم وللمزيد من النورانية في معرفتهم نذكر بعض الأحاديث الشريفة، من ذلك ما روي مرفوعاً إلى سلمان الفارسي، قال: كنت جالساً عند النبيّﷺ في المسجد، إذ دخل العبّاس بن عبد المطّلب فسلّم فردّ النبيّﷺ السلام ورحّب به، فقال: يارسول الله بِمَ فضّل الله علينا عليّ بن أبي طالبﷺ والمعادن واحدة؟

فقال النبيّﷺ: إذن أُخبرك ياعمّ: إنّ الله خلقني وخلق علياً ولا سماء ولا أرض، ولا جنّة ولا نار، ولا لوح ولا قلم، فلمّا أراد الله عزّوجلّ بدو خلقنا تكلّم بكلمة فكانت نوراً، ثمّ تكلّم بكلمة ثانية فكانت روحاً، فمزج فيما بينهما واعتدلا فخلقني وعلياً منهما، ثم فتق من نوري نورَ العرش، فأنا أجلّ من العرش، ثم فتق من نور عليﷺ نورَ السماوات، فعليّ أجلّ من السماوات، ثم فتق من نور الحسنﷺ نورَ الشمس ومن نور الحسينﷺ نورَ القمر، فهما أجلّ من الشمس والقمر، وكانت الملائكة تسبّح الله تعالى وتقدّسه وتقول في تسبيحها: سبّوحٌ قدّوس من أنوار ما أكرمها على الله تعالى.

فلمّا أراد الله أن يبلو الملائكة أرسل عليهم سحاباً من ظلمة، وكانت الملائكة لا تنظر أوّلها من آخرها ولا آخرها من أوّلها، فقالت الملائكة: إلٰهنا وسيّدنا منذ خلقتنا ما رأينا مثل ما نحن فيه، فنسألك بحقّ هذه الأنوار إلّا ما كشفت عنّا.

فقال الله عزّوجلّ: وعزّتي وجلالي لأفعلنّ، فخلق نور فاطمةﷺ يومئذ كالقنديل، وعلّقه في قرط العرش، فزهرت السماوات السبع والأرضون السبع، من أجل ذلك سُمّيت فاطمة الزهراء. وكانت الملائكة تسبّح الله وتقدّسه، فقال الله عزّوجلّ: وعزّتي وجلالي لأجعلنّ ثواب تسبيحكم وتقديسكم إلى يوم القيامة لمحبّي هذه المرأة وأبيها وبعلها وبنيها.

←

→ قال سلمان: فخرج العبّاس فلقيه عليّ، فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه، وقال: بأبي عترة المصطفى من أهل بيت ما أكرمكم على الله تعالى. (إرشاد القلوب للديلمي ٢: ٤٠٣، البحار للمجلسي ٤٣: ١٧ ح١٦).

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: لمّا خلق الله تعالى آدم أبو البشر ونفخ فيه من روحه التفت آدم إلى يمنة العرش، فإذا في النور خمسة أشباح سجّداً وركّعاً، قال آدم: يارب هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم، قال: فمَنْ هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنّة ولا النار ولا العرش ولا الكرسي ولا السماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجنّ، فأنا المحمود وهذا محمّد، وأنا العالي وهذا عليّ، وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن، وأنا المحسن وهذا الحسين، آليت بعزّتي أنّه لا يأتيني أحد بمثقال ذرّة من خردل من بغض أحدهم إلّا أدخلته ناري ولا أبالي. يا آدم، هؤلاء صفوتي من خلقي، بهم أُنجيهم وبهم أهلكهم، فإذا كان لك إليّ حاجة فبهؤلاء توسّل.

فقال النبيّ ﷺ: نحن سفينة النجاة، من تعلّق بها نجا ومن حادَ عنها هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت. (فرائد السمطين ١: ٣٦، فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى؛ الرحماني الهمداني: ٣٩).

وهذا قول للإمام الخميني قدّس الله نفسه الزكية، أورده بمناسبة ميلاد الزهراء يذكر فيه: «لم تكن الزهراء امرأة عادية، بل كانت امرأة روحانية، امرأة ملكوتية، إنساناً بكلّ ما للإنسان من معنى، إنّها موجود ملكوتي ظهر في عالمنا على صورة إنسان، بل موجود إلهي جبروتي ظهر بصورة امرأة، لقد تجسّدت كلّ الهويات الكمالية التي يمكن تصوّرها في الإنسان في هذه المرأة.

غداً تحلّ ذكرى ميلاد امرأة تحوي جميع خصائص الأنبياء وخصوصيّاتهم، امرأة لو كانت رجلاً لكانت نبيّاً، ولكانت في مقام رسول الله ﷺ!

إنّها تحمل وتجمع جميع المعنويات والتجلّيات الملكوتية والإلهية ←

إنّ الإرادة الربّانية في طهارة الأئمّة عليهم السلام لابدّ لها من أسباب، وإحدى أهمّ أسباب تفوّق الإنسان هو طيب مولده وطهارة الحجر الذي ينشأ فيه. أراد الله لهم عليهم السلام الطهارة، ولكنّه أراد أيضاً أن يكون منطلقهم في هذا الطريق هو حجر الأمّ الطاهرة، فطهّرها وعصمها.

من هذا البيان ندرك مكانة الأُمّ، ونرى كيف أنّ وجود الأُمّ مؤثّر حتّى في أولئك الذين يريد الله لهم الطهارة والعصمة، فكان حتماً أن ينشأوا في الأرحام الطاهرة والحجور المطهّرة، وأن يحظوا برعاية وأُمومة قمّة في الشرف والعفّة والعلم والمعرفة، وأن يطووا مراحل الرقي

← والجبروتية والملكية والناسوتية، إنّ هذه النشئة والخلقة الصورية الطبيعية هي أدنى مراتب الإنسان، الرجل والمرأة، ولكن الحركة نحو الكمال تبدأ من هذه المرتبة النازلة، فالإنسان موجود متحرّك من مرتبة الطبيعة إلى مرتبة الغيب، ومنها إلى الفناء في الألوهية، هذه المعاني كانت متحقّقة في الصدّيقة الطاهرة، انطلقت من مرتبة الطبيعة وبلغت مرتبة قصر وعجز عنها الجميع» (صحيفة النور ٦: ١٨٥).

ومن ذلك ما ذكره العلّامة المقرّم في عصمة الزهراء عليها السلام: «ولو أعرضنا عن البرهنة العلمية فإنّا لا ننسى مهما ننسى شيئاً، أنّها صلوات الله عليها مشتقّة من نور النبيّ صلى الله عليه وآله، المنتجب من الشعاع الإلهي، فهي شظيّة من الحقيقة المحمّديّة، المصوغة من عنصر القداسة، فمن المستحيل ـ والحالة هذه ـ أن يتطرّق الإثم إلى أفعالها، أو أن توصم بشيء من شية العار، فلا يهولنّك ما يقرع سمعك من الطنين أخذاً من الميول والأهواء المردية، بأنّ العصمة الثابتة لمن شاركها في الكساء لأجل تحمّلهم الحجّية من رسالة أو إمامة، وقد تخلّت الحوراء عنهما، فلا تجب عصمتها، فإنّا لم نقل بتحقّق العصمة فيهم عليهم السلام لأجل تبليغ الأحكام، وإنّما تمسّكنا لعصمتهم بعد نصّ الكتاب العزيز باقتضاء الطبيعة المتكوّنة من النور الإلهي المستحيل فيمن اشتق منه مقارفة إثم، أو تلوّث بما لا يلائم ذلك النور الأرفع حتّى في مثل ترك الأولى» (وفاة الصدّيقة الزهراء عليها السلام: ٥٤).

ويتمكّنوا من الانتصار في السير على الصراط المستقيم ببركة تلك الأُمّ الفاضلة.

وهكذا نستنتج أنّ العناية الربانية التي شملت الزهراءعليها السلام في آية التطهير كانت أكثر من تلك التي هبطت على بقية المجتمعين تحت الكساء! ولعلّ في الروايات ما يرمز إلى هذا المعنى، إذ إنّ أكثر الأخبار تشير إلى أنّ فاطمةعليها السلام كانت أوّل الحضور تحت الكساء، وأنّ النبيّصلى الله عليه وآله طلب منها استدعاء زوجها وابنيهاعليهم السلام.

نعم، إنّ آية التطهير سجّلت الإفاضة الربانية على أهل الكساء، وهذا ممّا ترتّب عليه واجبات ومسؤوليات تجاه الله والدين والناس، ونعلم أنّ هذه الواجبات الملقاة على عاتق «أهل البيت»عليهم السلام تختلف وتتفاوت من فرد إلى آخر، ممّا يعني تنوّع الأدوار وإن اتّحدت المسؤولية والتقى الهدف، إذن دور فاطمةعليها السلام الذي تؤدّي من خلاله رسالتها في حفظ الدين والدفاع عن حياضه هو أن تكون زوجة صالحة لزوجها العظيم، وأن تؤمّن له الأجواء المعنوية وتقف خلفه ليتمكّن من أداء دوره على أحسن وجه. وأن تكون أُمّاً حنوناً، تفيض عطفاً على أولادها، وليكونوا وهم في حجرها، في المكان المناسب والصحيح ليتلقّوا الفيض الإلهي من التربية الصالحة التي تمكّنهم من بلوغ الغاية في الفضيلة والقمّة في الأخلاق ويحقّقوا ما يريده الله لهم.

«والسلام على أُمّ الأئمّة النقباء النجباء فاطمة الزهراء وعلى أبيها وبعلها وبنيها».

□ ■ □



مصادر التحقيق

١ ـ **القرآن الكريم**

٢ ـ **الإتقان**، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد السيوطي (م٩١١)، المكتبة الثقافية، بيروت.

٣ ـ **الاحتجاج**، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (م٥٤٨)، دار النعمان، النجف، ١٣٨٦هـ.

٤ ـ **أحوال الرجال**، لأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (م٢٥٩)، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥ ـ **اختيار معرفة الرجال (رجال الكشّي)**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) جامعة مشهد، الطبعة الأُولى، ١٣٤٨ش.

٦ ـ **إرشاد القلوب**، لحسن بن أبي الحسن الديلمي (من أعلام القرن الثامن)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ.

٧ ـ **أسباب النزول**، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمّد بن علي الواحدي النيسابوري (م٤٦٨)، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٢هـ.

٨ ـ **الأمالي**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠)، مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.

٩ ـ **بحار الأنوار**، للعلّامة محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١١)، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٥هـ.

١٠ ـ **البرهان في تفسير القرآن**، للسيّد هاشم بن سليمان الحسيني البحراني (م١١٠٧ أو ١١٠٩)، دار الكتب العلمية، قم.

١١ ـ **البيان في تفسير القرآن**، للسيّد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧ ـ ١٤١٣)، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٤هـ.

١٢ ـ **تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة**، للسيّد شرف الدين علي الحسيني الاسترآبادي الغروي (من أعلام القرن العاشر)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٣ ـ **تفسير العيّاشي**، لأبي النضر محمّد بن مسعود بن محمّد بن عيّاش السمرقندي (من أعلام القرن الرابع)، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

١٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (م٧٧٤)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٥ ـ **تفسير القمّي**، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي (من أعلام قرني ٣ ـ ٤)، منشورات العلّامة، قم.

١٦ ـ **تفسير نور الثقلين**، لعبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (م١١١٢)، دار الكتب العلمية، قم.

١٧ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، لجمال الدين أبي الحجّاج يوسف المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢)، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٨ ـ **جامع البيان في تفسير القرآن**، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (م٣١٠)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

١٩ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي

١٩ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي (١٢٩٥ ـ ١٣٦٢)، نشر حبيب، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
٢٠ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهاني (م ٤٣٠)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١ ـ **الخصال**، لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١)، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٣هـ.
٢٢ ـ **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد السيوطي (م ٩١١)، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤هـ.
٢٣ ـ **ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري** (٥٠ هـ)، دار صادر، بيروت.
٢٤ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي (م ١٢٧٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥ ـ **سنن ابن ماجة**، لأبي عبدالله محمّد بن يزيد القزويني (م ٢٧٥)، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢٦ ـ **شرح نهج البلاغة**، لعزّ الدين أبي حامد بن هبة الله بن محمّد بن محمّد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني (٥٨٦ ـ ٦٥٦)، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤هـ.
٢٧ ـ **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**، لعبيد الله بن عبدالله بن أحمد، المعروف بالحاكم الحسكاني (من أعلام القرن الخامس)، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ.

بردزبة البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٩ ـ **صحيفة نور، مجموعه رهنمودهای امام خمینی**، وزارت ارشاد اسلامی، تهران، ١٣٦١ش.

٣٠ ـ **الصواعق المحرقة**، لأحمد بن محمّد بن محمّد بن علي بن محمّد بن علي بن حجر الهيتمي المكّي (٩٠٩ ـ ٩٧٤)، مكتبة القاهرة.

٣١ ـ **علل الشرائع**، لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م٣٨١)، المكتبة الحيدريّة، النجف.

٣٢ ـ **عيون أخبار الرضا**عليه السلام، لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م٣٨١)، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٣٣ ـ **غاية المرام**، للسيّد هاشم بن سليمان بن إسماعيل البحراني التوبلي الكتاني (م١١٠٧) مؤسّسة الأعلمي، بيروت.

٣٤ ـ **فرائد السمطين**، لإبراهيم بن محمد بن المؤيّد بن عبدالله بن علي بن محمد الجويني الخراساني (٦٤٤ ـ ٧٢٢)، مؤسسة المحمودي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

٣٥ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم الظاهري (٣٨٤ ـ ٤٥٦)، المطبعة الأدبية، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٢٠هـ.

٣٦ ـ **في ظلال القرآن**، لسيّد بن قطب بن إبراهيم (١٣٢٤ ـ ١٣٨٧)، دار الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ.

٣٧ ـ **قاموس الرجال**، لمحمّد تقي التستري (١٣٢٠ ـ ١٤١٥)، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأولىٰ.

الإسلامي، قم، الطبعة الأولىٰ.
٣٨ ـ **الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني (م ٣٢٩)، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ.
٣٩ ـ **الكامل في التاريخ**، لعلي بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.
٤٠ ـ **كتاب المجروحين من المحدّثين والضعفاء والمتروكين**، لمحمّد بن حبّان بن أحمد أبي حاتم التميمي البُستي (م٣٥٤)، دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
٤١ ـ **الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء**عليها السلام، للسيّد عبدالحسين شرف الدين (م١٣٧٧)، مكتبة الإمام للنشر والدراسات الإسلامية، بيروت، ١٤١٦هـ.
٤٢ ـ **كمال الدين وتمام النعمة**، لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م٣٨١)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
٤٣ ـ **كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي (٨٨٨ ـ ٩٧٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٤٤ ـ **اللهوف علىٰ قتلى الطفوف**، للسيّد علي بن موسىٰ بن طاووس (م٦٦٤)، دار الأُسوة، قم، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ.
٤٥ ـ **مجمع البيان في تفسير القرآن**، لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (م ٥٤٨)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.
٤٦ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي

٤٧ ـ **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبدالله محمّد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (م٤٠٥)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٤٨ ـ **المسند**، لأبي عبدالله أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني (١٦٤ ـ ٢٤١)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٤٩ ـ **معجم الأدباء**، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي (٥٧٤ ـ ٦٢٤)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٥٠ ـ **المعجم الكبير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية.

٥١ ـ **الميزان في تفسير القرآن**، للسيّد محمّد حسين الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٢)، مؤسّسة إسماعيليان، قم، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ.

٥٢ ـ **نهاية الحكمة**، للسيّد محمّد حسين الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٢)، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٠هـ.

٥٣ ـ **نهج البلاغة**، للسيّد الشريف أبي الحسن محمّد الرضي بن الحسن الموسوي (م٤٠٦)، تحقيق صبحي الصالح، دار الأُسوة، طهران، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٥٤ ـ **وفاة الصدّيقة الزهراء** عليها السلام، للسيّد عبد الرزّاق الموسوي المقرّم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٠هـ.

٥٥ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأبي العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١)، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

●●●

مؤلّفات سماحة آية الله العظمى الشيخ محمّد الفاضل اللنكراني ـ مدّ ظلّه ـ المطبوعة

نهاية التقرير في مباحث الصلاة؛ وتقع في ثلاثة أجزاء:

١ ـ الجزء الأوّل منها ٥١٦ صفحة، ويتوفّر في مقدّمته على قراءة في حياة الإمام السيّد البروجردي قدّس سرّه الشريف، وعلى لمحة عن حياة المقرّر سماحة آية الله العظمى الشيخ محمّد الفاضل اللنكراني دام ظلّه العالي، ثمّ بعد ذلك تأتي مقدّمة المؤلّف، فالمطلب الأوّل: وهو في مقدّمات الصلاة.

٢ ـ الجزء الثاني فيقع في ٥٣٢ صفحة، ويتضمّن المطلب الثاني: في أفعال الصلاة، ثمّ المطلب الثالث: في قواطع الصلاة، والمطلب الرابع: في الخلل الواقع في الصلاة.

٣ ـ الجزء الثالث، الذي يقع في ٤٢٤ صفحة، فبعد أن يتمّ سماحته بقيّة المطلب الرابع، ينتقل إلى المطلب الخامس: في قضاء الصلوات، ثمّ المطلب السادس: في صلاة الجماعة.

بعد هذا كلّه تأتي مصادر التحقيق وفهرس عام للكتاب بأجزائه الثلاثة.

*** تفصيل الشريعة:**

موسوعة فقهيّة استدلالية، وهي شرح لكتاب تحرير الوسيلة لسماحة آية الله العظمى السيّد الإمام الخميني﴿قدس سره﴾، وبيان استدلالي لجميع المباني الأصولية والفقهية التي اعتمدها سماحة السيّد الإمام في مؤلفاته تلك مع مناقشة بعضها وتبنّي بعضها الآخر. والمطبوع منها:

٤ ـ الاجتهاد والتقليد:

ويقع هذا الكتاب في ٣٠٣ صفحات. وفرغ سماحته منه في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ربيع المولود سنة ١٣٩٤هـ. ق.

٥ ـ المياه:

هذا الكتاب يبدأ بأقسام المياه وما يرتبط بها من مسائل مختلفة مع بيان الصور المتعدّدة لملاقي النجاسة. ويقع في ٢٧٦ صفحة.

٦ـأحكام الوضوء والتخلّي:

ويقع هذا الكتاب في ٤٣٢ صفحة. وفرغ سماحته منه في سلخ شهر ذي الحجّة من شهور سنة ١٣٩٥هـ. ق.

٧ـ النجاسات وأحكامها:

وهو تأليف يخصّ أحكام النجاسات وكيفية التنجّس بها، كما يتعرّض إلىٰ موارد النجاسة المعفو عنها في الصلاة. ويقع في ٤٩٢ صفحة.

٨ـ غسل الجنابة، التيمّم، المطهّرات:

ويقع في ٧٢٣ صفحة، وتمّ بقلم سماحته مدّ ظلّه العالي، في اليوم الثامن عشر من شهر ذي القعدة الحرام من شهور سنة ١٣٩٨ من الهجرة النبويّة.

٩ـ الصلاة:

وقد تمّت طباعة الجزء الأوّل، الذي يتضمّن ٦٨٧ صفحة.

الحجّ:

١٠ـالجزء الأوّل، ويقع في ٥٢٣ صفحة.

١١ـالجزء الثاني، ويقع في ٤٤٨ صفحة.

١٢ـالجزء الثالث، ويقع في ٤٧٢ صفحة.

١٣ـالجزء الرابع ويقع في ٤٤٨ صفحة.

١٤ـالجزء الخامس، ويقع هذا الجزء في ٤٨٠ صفحة.

١٥ـ النكاح:

ويتضمّن ٦٥٦ صفحة.

١٦ـ الطلاق والمواريث:

ويقع في ٥٣٥ صفحة. ويشتمل علىٰ شروط الطلاق وأقسامه وأحكامها... وموجبات الإرث وموانعه، والسِهام وأحكامها...

١٧ـ القضاء والشهادات:

ويحتوي علىٰ ٥٦٠ صفحة.

وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة في طبعتها الأُولى كانت من قبل مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام، الذي أشرف على تحقيقها وطبعها ونشرها.

١٨ ـ القصاص:

ويقع هذا الكتاب في ٤٦٣ صفحة. طُبع أوّل مرّة سنة ١٤٠٧هـ. ق، وقد قام علىٰ تحقيقها وطبعها ونشرها ثانية مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

١٩ ـ الحدود:

ويحتوي على ٧٣٥ صفحة، ويشرف مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام على إعادة طبعه ثانيةً بعد إتمام تحقيقه وتنسيق بحوثه.

٢٠ ـ الديات:

ويقع في ٣٤٤ صفحة، وقد فرغ سماحته من تأليفه لهذا الكتاب يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأُولى، وطبعته الأُولى كانت سنة ١٤١٨هـ. ق.

٢١ ـ الإجارة:

ويحتوي هذا الكتاب علىٰ ٤٤١ صفحة.

*** معتمد الأصول:**

وهو تقريرٌ لأبحاث سماحة السيّد الإمام الخميني قدس سره بقلم سماحة الشيخ الفاضل مدّ ظلّه العالي. ويقع هذا الكتاب في جزأين:

٢٢ ـ الجزء الأوّل المطبوع، ويتضمّن ٥٢٩ صفحة.

٢٣ ـ الجزء الثاني منه، يتضمّن تنبيهات البراءة، وسائر الأُصول العملية، ومباحث أُخرى في التعادل والتراجيح، وفي الاجتهاد والتقليد؛ وهو في طريقه للطبع بعد أن يتمّ تحقيقه بإشراف مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

٢٤ ـ الأحكام الواضحة:

وهي رسالة عملية احتوت علىٰ مسائل كتبت باللغة العربية. وتقع في ٤٨٨ صفحة، تتضمّن ٢٠٤٢ مسألةً في أبواب فقهيّة متعدّدة.

٢٥ ـ رسالة توضيح المسائل:

وهي باللغة الفارسية. وتقع في ٦٢٣ صفحة. وقد طبعت هذه الرسالة ستّين مرة.

٢٦ ـ رسالة أحكام شرعية تخصّ الشباب (رسالهٔ احكام براى نوجوانان).

وتتضمّن هذه الرسالة أحكاماً تتناسب وأعمار الشباب في أبواب فقهيّة متفرّقة. وتحتوي على ٢١٦ صفحة وهي في طبعتها الرابعة لسنة ١٣٧٦هـ. ش.

٢٧ ـ الحواشي على العروة الوثقى لآية الله السيّد محمد كاظم الطباطبائي اليزديﭚ**:**

ويقع هذا الكتاب في ٣١٣ صفحة على ترتيب مسائل كتاب العروة الوثقىٰ. وهو في طبعته الثالثة لسنة ١٤١٦هـ. ق.

٢٨ ـ مناسك الحجّ: (باللغة الفارسيّة)

وتتضمّن هذه المناسك ١٠٨٨ سؤالاً يتعلّق بالمسائل المختصّة بفريضة الحجّ والأعمال العبادية.

٢٩ ـ مدخل التفسير:

وهو كتاب قيّم جدّاً يحتوي علىٰ ما يتعلّق بتفسير القرآن الكريم وإعجازه وقراءاته وأصول تفسيره، وأنّه لم يقع فيه التحريف. ويتوفّر على ٢٩٦ صفحة في طبعته الثالثة لسنة ١٤١٨هـ. ق.

٣٠ ـ آية التطهير رؤية مبتكرة:

وهو هذا الكتاب.

٣١ ـ الأئمّة الأطهار، حفظة الوحي في القرآن الكريم (ائمة اطهار پاسداران وحى).

كتب هذا المؤلَّف باللغة الفارسية بقلم كلّ من الشيخ الفاضل وآية الله إشراقي. ويقع في ٤٥٥ صفحة.

٣٢ ـ التقية المداراتية:

على ضوء المباني الفقهيّة للإمام الخميني ﭚ وضع هذا الكتاب الصغير في هذا الموضوع المهمّ والنافع.

٣٣ ـ القواعد الفقهيّة:

يبحث هذا الأثر النفيس ـ الذي طبع في محرّم الحرام من سنة ١٤١٦هـ. ق، وعدد صفحاته ٥٥٠ صفحة. ـ في عشرين قاعدة مهمّة في الفقه الإسلامي وتحقيقها.

٣٤ ـ كتاب الطهارة من تقريرات درس الإمام الخميني ﭚ وهو في طريقه للطبع.

* **جامع المسائل؛** ويقع في جزأين:

٣٥ ـ الجزء الأوّل: وفيه ٦٤٠ صفحة مع ٢٢٤٨ مسألة.

٣٦ ـ الجزء الثاني: وفيه ٤٩٦ صفحة مع ١٣٠٧ مسائل.

ويحتوى كلّ جزء منها على ما انتخب من الاستفتاءات الكثيرة الموجّهة إلى سماحة الشيخ الفاضل مع أجوبته عنها.

٣٧ ـ استفتاءات حول الحجّ والعمرة:

ويقع في ١٤٤ صفحة، ويتوفّر على الأسئلة التي وُجّهت إلى سماحته حفظه الله ورعاه، وأجوبته سماحته عنها.

٣٨ ـ أحكام الحجّ من كتاب تحرير الوسيلة:

وهو يتضمّن تعليقات سماحة الشيخ الفاضل ـ مدّ ظلّه ـ على كتاب الحجّ من تحرير الوسيلة للسيّد الإمام الخميني ـ قدّس سرّه الشريف ـ ويقع في ١٤٤ صفحة تتضمّن مسائل متعدّدة في هذه الفريضة المقدّسة، وهو في طبعته الجديدة الثالثة، وقد قام مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام على طبعه ونشره.

٣٩ ـ الفتاوى الوافية، الجزء الأوّل:

يقع في ٦٠٠ صفحة وهو في طريقه للطبع. ويضمّ مجموعة من الاستفتاءات التي وجّهت إلى سماحة الشيخ الفاضل مدّظلّه وأجوبته عنها.

٤٠ ـ مناسک الحجّ (بالعربية)

يقع في ٣٨٦ صفحة.

٤١ ـ أحكام العمرة المفردة. (باللغة الفارسية)

يقع في ٢٥٦ صفحة وهو في الطبعة السادسة.

فهرس مواضيع الكتاب

❊ ❊ ❊